

مصطفى محمود



خارجة



دارالمعارف

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

Bibliotheca Alexandrina



0156171

الغاية

مصطفى محمود

الغاية

الطبعة السادسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هذا الكتاب

حينما بدأت أكتب عن رحلتى فى الغابة كان فى ذهنى أن أروى ما شاهدت من انطباعات فى سياق فنى قصصى .. وفى الجزء الأول من الكتاب كان هذا هو الطابع الملحوظ فى الأسلوب .. ولكن الموضوع ما لبث أن تحول بين يدي بعد ذلك إلى دراسة علمية .. أتقصى فيها المراجع وأبحث فى بطون الكتب .. وأحاول أن أجمع إلى شهادة الرؤيا وشهادة الحواس .. جهود الباحثين الذين عاشوا أعمارهم فى هذه المجاهل البعيدة . وكانت طبيعة الموضوع هى التى فرضت علىّ هذا الأسلوب .. فقد انفتحت الغابة أمام عيني على عالم هائل .. رهيب .. تيه مجهول .. جديد كل الجدة .

وكان فضول المعرفة .. وعطش العلم .. والرغبة فى الكشف عن هذا التيه والتعرف عليه .. أقوى من الرغبة فى التجميل الفنى . وكان الاكتفاء باللمحة العابرة التى تمنحها لى سياحتى تقصيراً لا يلىق بجلال الموضوع الذى أتناوله .

كنت تواقاً إلى المعرفة .. وكنت أشعر أن قارئى أكثر منى رغبة فى

التعرف على هذه المجاهل . . منه في قضاء لحظة استرخاء لذيدة بين
انطباعات فنية ناقصة . . ولهذا فضلت أن يكون كتابي دعوة إلى معرفة وعلم
أكثر منه دعوة إلى متعة فقط .

مصطفى محمود

الطريق إلى الغابة

المدينة شيء خائق لزج . .

البيوت الضيقة كالدكاكين . . والناس المتراحمون في طواير يتهايمسون
في رية ويتبادلون الخوف ويتناقلون الأكاذيب ويتعاطون الأقراص المنومة
ولا يعرفون للنوم طعاماً . . الأشجار الحليقة . . الوجوه التي غطتها
المساحيق . . الأظافر التي كساها الطلاء . الشفاه التي احتجبت خلف
بسمات باردة تقليدية لا تدل على شيء . . اللغة التي أصبحت رخيصة
مهلهلة مبتذلة لكثرة ما دخلها من النفاق والتزلف والصنعة . . الصداقة
التي أصبحت حرفة . . العاطفة التي تحولت إلى طريقة للوصول . .
نهازو الفرص الذين انتشروا في كل مكان يطنون كالذباب . . البراعة
التي ماتت .

المرض المزمن الذي أصبح له ألف اسم واسم . . القرحة . . القولون . .
الأملاح . . السكر . . الضغط . . الكبد . . الذبحة . . الأرق . .
القلق . . وهو مرض واحد اسمه الحقيقي . . المدينة . .
كانت هذه الأفكار تراودني وأنا على ارتفاع عشرة آلاف قدم طائراً إلى
تنجانيقا . . إلى أفريقيا السوداء . .

كم بدت لي ييضاء في تلك اللحظة . . ييضاء القلب .
كنت أشعر أني مريض بداء مزمن اسمه « المدينة » . . داء عضال . .
إدمان لا شفاء منه على اصطناع كل شيء . . اصطناع الكلام . . اصطناع
السلوك . . اصطناع التهذيب . .

وكان أملى الوحيد في الشفاء . . هو الغابة . . أرتقي في حضنها . . ولا
أعود اصطنع شيئاً . . لا أتكلم الكلمات المهذبة المنمقة التي اعتدتها
في المدن . . ولا أحلق ذقني . . ولا أتكلف الأدب . . وإنما أدع ذلك الريني
الحشن الذي يسكنني يتكلم على سجيته كما يفعل وحش الغاب حينما يعوى في
الصباح دون أن يبحث لعوائه عن ديباجة . .
يا لها من حرية . .

ونظرت من فوق . . إلى المدن التي تضاءلت تحت قدمي . . كصفوف
من العلب الصفيح . . وشعرت بنشوة تغمرني والطائرة تقفز عبر الضباب إلى
ذلك المارد الأسود . . وكأنني على ميعاد مع حبيبة تدلّهت بها حباً . .
وشملتني رجفة . . وأنا أسمع الطيار يقول . .
- نحن الآن فوق أديس أبابا . . باقى ساعتان على دار السلام . .
ونظرت من النافذة إلى سلسلة الجبال الكالحة المغطاة هنا وهناك بمفارش من
القطيفة . .

هكذا تبدو الغابة من فوق . . مجرد وبر أخضر كوبر القطيفة يكسو
الجبل . .
ومرحت . .

أى حياة تموج في داخل هذا الوبر الذي يبدو ساكناً لا يختلج .

أى صراع دامى يجرى فى هذا الدغل الأشهب الذى يبدو كقطعة من القماش الموهير .

وعادت الطائرة فانتزعتنى من خيالاتى لتلقى بى فى سحابة كثيفة من الضباب . . وغاب بصرى فى غمرة من القطن المندوف . . لا يظهر منه أرض أو سماء . .

وارتفع صوت الطيار مرة أخرى . .

- نحن الآن فوق المحيط الهندى . . على خط الاستواء . . ودرجة الحرارة ٣٠ درجة . . والضغط معتدل . . وظروف الطيران ملائمة . ونظرت إلى المحيط . . كان يبدو كصفحة مرآة مصقولة . . وكانت الأمواج العالية الهائلة تبدو كنغبشة دجاج على سطحه . . امتداد أزرق فى كل اتجاه . . لا شطآن . . لا أول . . لا آخر . . منظر أصلع لا يتغير . . لون أزرق دسم ولكن سادة . . ليس فيه أى نقش . . وبدأت أشعر بالبلادة . . والثقيل . . والملل . . وخيل إلى أن الطائرة وقفت تماماً .

ولا أدري كم من الوقت مر على هذا الركود . . ولكنى تنهت على أحشائى تهبط . . والطائرة تهبط بسرعة لتستقر وادعة فى مطار دارالسلام . .

وأطلت وجوه سوداء باسمه تلبس الطرايش . . وسمعت كلمة . . « كريبو مرحب » . . تردد باللغة الوطنية لأهل البلاد . .

وعرفت بعد هذا أن اللغة « السواهيلى » أو السواحلى لأهالى تنجانيقا معظم أفاظها عربية . . ودارالسلام نفسها اسم عربى أطلقه العرب على هذا

الجزء من الساحل حينما كان بالنسبة للسفن العربية التي كانت تحمل التوابل عبر المحيط الهندي ملاذ أمان ودار سلام من العواصف البحرية الكاسحة . .
وأغلب أسماء السكان في تنجانيقا أسماء عربية . . ومعظمهم مسلمون
ومعظم الكلمات مألوفة للأذن . . فهم يسمون الصحون هناك صحاني . .
والقهوة كاهوا . . والماء ماجي . . والسمك سماكي . . والكبريت
كبريتي . . والسفر سفاري .

وكلمة سفاري لم تدخل اللغة « السواهي » وحدها . ولكنها دخلت اللغة
الإنجليزية أيضا . .

لهذه الدرجة فرضت الشخصية العربية نفسها . . وتركت آثارها . .
ولكن يبدو أن هذه الآثار لم تكن أكثر من آثار لغوية . . لأن كل شيء
في تنجانيقا ماعدا الأسماء والكلمات . . إنجليزي . .

المباني في دار السلام إنجليزية . . والمرور إنجليزي « من على الشمال »
والفنادق إنجليزية . . والبنوك إنجليزية . . والسلطة إنجليزية .

والهنود سلطة ثانية في تنجانيقا . . سلطة من نوع غير مباشر فكل التجارة
والثروة الفعلية في يد الهنود . . موظفو المكاتب وأصحاب المحلات وأصحاب
البارات هنود . . والأطباء هنود . . وأصحاب الشركات هنود . . حتى
مكاتب التاكسي يديرها هنود . . ومكاتب البريد يديرها هنود . . ومكاتب
التلغراف يديرها هنود . .

وأهالي البلاد الأصليون يشتغلون بأفقر المهن . . ومعظمهم يسكنون
البنجالو والأكواخ . . وهم بسطاء طيبون يحبون الرقص والموسيقى ويفرقون
همومهم في « الموناتسي » . . نوع من الخمر مصنوع من لبن جوز الهند . .

والجذام والملاريا والحمى الصفراء ومرض الفيل والجدرى ومرض النوم
تحصد المواطنين من الأهالى الأصليين الذين يعيشون على أطراف المدينة . .
وذبابه تسمى تسمى التى تنقل مرض النوم . . والبعوض الناقل للملاريا
والحمى الصفراء ومرض الفيل موجود بكثرة فى الغابة . .
ولكن دار السلام خالية من الأوبئة تقريباً . . والإنجليز تمكنوا من
القضاء على ذباب تسمى تسمى هناك . .

والمدينة نظيفة جداً . . ومبينة على طراز عصرى . .
والجو حار رطب لكن محتمل . .
أشبه بصيف الإسكندرية الحائق فى أغسطس . .
وحكاية الجو الاستوائى القاتل . . والرجل الأبيض الذى يكافح
ويستشهد من أجل نشر النور والعرفان خرافة روجتها السينما . . ولا زالت
تروجها . . والحقيقة أن الرجل الأبيض يعيش فى خط الاستواء منعماً بالهواء
المكيف وبال عربات الفاخرة والطائرات الخاصة .
وهم هناك يحكون حكاية ويليام سن الذى نزل تنجانيقا من ستين
عاماً . . ونصب سوراً من الأسلاك الشائكة حول خمسمائة ميل من الأرض
كتب عليها اسمه . .

وبدأ ينقب فيها . . فعثر بالصدفة على منجم للماس . .
وأصبح ويليام سن بين يوم وليلة واحداً من أغنى أغنياء العالم . .
وكان يهدى عقود الماس للملكة مارجريت بنصف مليون جنيه . .
وبلغت الضرائب التى فرضت عليه فى العهد العمالى ٨٠٪ . . ومع ذلك
ظل مليونيراً . . وظل واحداً من أغنى أغنياء العالم . . وفى خاتمة حياته

أصيب بسرطان اللسان . .

وظل يتجول فى بلدان العالم يستشير أكبر الأطباء والجراحين دون أمل . .

ومات بعد سنتين من المرض وحوله ١٦ طبيب عالمى . . فى فيلا بنيروبي . .

وهم يروون الحكاية ويمصمسون شفاهم فى عبرة قائلين . .

وأين ذهب ويليام سن بكل ملايينه ! ! . . ولا شك أن حكاية المواطن التنجانيقى الفقير الذى تلتهمه الحمى الصفراء وتسلمه إلى القبر . . بلا عزاء . . وبلا ملايين . . وبلا اسم يتناقله الرواة من بعده . . تلك الحكاية التى تحدث كل يوم . . أكثر إثارة . . وأكثر عبرة . . من حكاية المدعو ويليام سن الذى عاش ومات بعد أن استمتع بكل إمكانياته .

الأحد ٣ فبراير :

كانت الأوتيل تتحدث عن السرقة العجيبة التى حدثت فى الليل . .

قالت الزوجة إنها شاهدت اللص يقفز من النافذة إلى الغرفة وهو عار تماماً لا يستر جسمه الأسود شىء . . وكان جسمه يلمع لمعاناً غريباً كأنه مدهون بالشحم أو الزيت . . وفى يده سكين طويلة مشرعة . .

وفى لمح البصر كان يخطف سروالاً من الشماعة ويلقى به من النافذة إلى شخص آخر ينتظره . .

وفى اللحظة التى استطاعت أن تستجمع شجاعتها وتلكز زوجها النائم إلى

جوارها ويهب الاثنان ليلحقا باللص كان اللص قد قفز من النافذة إلى الشارع . .

كل ما استطاع أن يشهد به الرجل أنه أمسك بيد اللص فانزلت من قبضته كأنها ذراع من هلام وأن يده تلوثت بمادة دهنية .

وخرجت تنجانيقا ستاندارد بأعمدة طويلة مفصلة عن عصابات السود التي تهاجم المنازل . . وقطاع الطرق الذين يسلبون المارة تقودهم آخر الليل . .

وهز سكان الأوتيل رءوسهم فهذه أشياء عادية تحدث كل يوم في دار السلام . .

وكان الحديث الذي يدور في قاعة الطعام صباح ذلك اليوم . . كله عن الحادث . .

المرأة الحمراء الوجه التي تشرب القهوة في الركن كانت تقول لزوجها في عصبية .

– هؤلاء الزوج . . إنهم منتشرون في كل مكان . . إنهم ينظرون إليك كلما أخرجت قطعة من النقود . . وكأنهم سيأكلونك . .

وزوجها يهز ساقه وينقر على المائدة ولا يجيب فتقول بعصبية أكثر . .

– هذه البلد . . لم يعد أحد يستطيع أن يمشى فيها آمناً . فيتسم الزوج معلقاً .

– هذا أمتع ما في هذه الرحلات . . أن يعيش الواحد في خطر . .

لا تنسى يا حبيبتي أنك في أفريقيا .

فتقول وهي تنفخ . .

- أوف . . هذه همجية . . هذه بربرية . . إننا لم نقطع كل هذه
الأميال لتسرق نقودنا . . هذه فوضى . . ألا يوجد بوليس . . ألا توجد
نيابة . .

واثنان من الأمريكان يبدو أنهما من رجال الأعمال . . يدخنان
السيجار . . ويقول أحدهما صاحكاً إنه يحسب حساباً لمثل هذه المفاجآت
دائماً . . وينام ونقوده في جيبه .

ورجل بلجيكي قادم من الكونغو يتلفت حوله في قلق . . ويقوم
ويقعد . . ويذهب إلى التليفون . . ويسأل عن مدير الأوتيل . .
ويهتف في اضطراب . .

- هذا فظيع . . لا بد من حراسة . . لا أدري ماذا أفعل لو أنى فقدت
نقودي في هذا البلد الغريب . .
وسائح إنجليزي له ذقن كثة . . لا يفتأ يتخلل ذقنه بأصابعه . . ويقول
في اشمئزاز .

- هذا اللص يجب أن يشنق . . هذه فضيحة .
وحينما ذهبت لأدفع حساب الأوتيل كان المدير الهندي الوسيم الحليق
الذي يلبس بدلة ترجال . . يتحدث في ثورة عن اللص . . وعن زمام
الأمن الذي أفلت من رجال البوليس . . وعن الإهمال . . والفوضى . .
والإرهاب .

وقدم لي فاتورة طويلة عريضة . . لاحظت أن فيها مائة شلن زيادة ولما
حاولت أن أستفسره . . قال في أدب أنى تأخرت في إخلاء الغرفة نصف
ساعة . . وأن الليلة قيدت على حسابي .

أى ليلة . . أننا مازلنا فى أول النهار . . وهذه الوجبات الثلاث مقيدة
على حسابى أيضاً ! ؟ . . غير معقول ، . . إنى لم آكل منها لقمة . . كيف
أدفع ثمن وجبات لم أذقتها .

وعاد المدير يقول فى أدب جم . .

- هذا هو النظام . . إن الخدمة هنا كاملة . . وأجر الغرفة يحسب شاملاً

المبيت والطعام . .

- ولكنى لم أبت الليلة . . ولم أتناول طعاماً . .

ولم يشفع لى عنده شفاعاة . .

وأصر على أن يأخذ آخر شلن إنجليزى فى جيبى . .

وحينما وضع النقود فى خزينته . . وقام يصفاحنى . . عاد يتأسف بشدة

ويعتذر عما حدث بالأمس . . وما فعله ذلك اللص المجرم . .

الأثيم . . الوغد . . ال . . ال

أى لص يقصد ! ؟ . .

سارق السراويل الغلبان الذى دهن جسمه بالسمن وتسلق النافذة

ليخطف جاكته ؟ ! . .

جاكته ! ؟ . .

وماذا يفعل كل هؤلاء اللصوص البيض الذين تسلقوا البلد من البر

والبحر والجو وهجموا عليها من كل النوافذ . .

ماذا يفعلون طول اليوم .

وكل يوم . .

الاثنين ٤ فبراير :

كل شيء في دار السلام يحرق الأعصاب . . التجارة في كل شبر وفي كل خطوة . . وكل الناس في دار السلام تجار بشدة ليس لديهم وقت لصداقة أو عاطفة . . جرايع . . وأفاقون . . ومغامرون . . وافدون من كل مكان في الأرض جرياً وراء الصفقات . . والثروات . . لا أحد يتحرك لوجه الله . . كل واحد يتحرك لمنفعة . . أو مشروع . . حتى المبشر خادم الله يخدم أشياء أخرى لا علاقة لها بالله .

وشعرت أني أختنق . . وأنى لوبقيت أكثر من ذلك سوف أنضم إلى صاحبي الأسود الذي ينخطف الجاككات . .
وركبت أول طائرة مغادرة دار السلام .

وبعد ساعة وعشرين دقيقة كنت أنزل في موشي . .
وأخذت عربة من المطار لأصعد في ممرات جبلية . .
وكانت عيناى تتلفتان في ذهول .

الطريق كله غابات جبلية شجراً تتخللها مساقط مياه . . وحيضان زهور . . وجداول عذبة . . وهضاب حمراء نحاسية اللون . . وتعاريش خضر . . واستراحات هنا وهناك . . وفنادق غاية في الذوق والجمال والنظافة . . والجو بارد في جفاف واعتدال . . والنسيمات تقرص الحدود وتدغدغها في رفق منعش . .

مكان أشبه بسويسرا . .

الأشجار اقتلعت وشقت في وسطها الطرق بالأسفلت . . وبنيت القصور

والشاليهات والفيلات .

جبل كليمنجارو . . شاهق عملاق . . يخرق السحاب . . تلمع رأسه
الصلعاء في الشمس . . تغطيها رقائق الثلج كمنديل أبيض مطرز
بالدانتيل . .

وتوقفت العربّة عند مشرب أفريقي مبني بالبامو . . وكان الوطنيون
السكاري يجلسون على دكّ خشبية ويتناولون البومبي (البوظة المصنوعة من
الموز المخمر) بأكواب خشبية لها أيد طويلة كالملاعق . . ورائحة المكان كرائحة
بوظة الحللى عندنا . .

وخلف المشرب كانت تصطف البراميل التي يخمر فيها الموز المهروس . .
وكان الفقريبدو في ملابس الوطنيين . . وفي ملابس الساقى والساقية . . وفي
البراميل المكشوفة التي يتساقط فيها الذباب . .

وعلى بعد أمتار من المشرب كانت السوق الوطنية منصوبة . . وأسباط
الموز معروضة للبيع على الأرض . . وثمار الأناناس . . والجبن . . والزبد . .
وجرار اللبن . . وسلال البيض . . مصفوفة على ملاءة مفروشة . .

وفي مكان آخر صحون وملاعق خشبية ودمى وتمائم لطرد العين . .
وعقود من الخرز وغوايش وحلقان وأقمشة ملونة . .

وكانت جلود الأسود والنمور منشورة لتجف على الأشجار . .
وكانت أغلب البائعات الواقفات من النساء المتقدمات في السن . .
وإلى جوار السوق كانت تبدو مشارف الفندق الفخم بجذائقه الغناء .
وفيلاته الرشيقة . . ووابور الماء والكهرباء الخاص به . . وغلايات الماء
الساخن . .

وعلى الأشجار كان اسم الفندق منحوتاً في حروف إنجليزية كبيرة . . مرة أخرى ذلك التناقض الحاد الذى يستفز الأعصاب . . .
وكان « لازارو » السائق يحدثني طول الوقت في إنجليزيته المكسرة .
- إن مشكلتنا ياسيدى . . أن الأرض كلها في يد الإنجليز . . والتجارة كلها في أيدي الهنود . . ونحن ضائعون بين الاثنين . . إنك تتفرج الآن مبهوئاً على جمال بلادنا . وروعة بلادنا . . ونحن مثلك نتفرج . . ولا نملك أكثر من أن نتفرج . كل شيء في أيدي الآخرين . . ونحن ننظر ونتحسر . . ولو أنك ذهبت إلى نيروبي لرأيت ماهو أجمل . إنهم يبنون هناك العمارات من عشرين دوراً . .
وحينما وصلت إلى الفندق . . كنت مازلت أفكر في كلام « لازارو » وأتحسر أنا الآخر .

السبت ٩ فبراير :

في الأيام القليلة التي قضيتها منتقلاً من دار السلام إلى موشي . . رأيت الجبل والوادي والمراعى الاستوائية الفسيحة والمدينة . . والمدينة في قمتها وجدتها في نيروبي . .
ونيروبي مدينة كل شيء فيها مغسول مكنوس مصقول متألق . . وهى مخططة بالقلم والمسطرة على أحدث النظم العصرية . . الشوارع واسعة عريضة . . والميادين فسيحة . . وفي حى الموز كل فيلا حولها فدان من الحدائق . . والإنجليز لهم سرايات كسرايات عابدين والمنتزه . . وفي كل سراية حمام سباحة . . وحديقة حيوان وسينما . . وأكشاك من البامبو فوق

فروع الشجر . . للاسترخاء والسرحة . ثراء فاجر يرهق الأعصاب . .
السيارات تزحم الشوارع وتزيد على عشرين ألف سيارة . .
الجراجات متعددة الأدوار كما في أمريكا لتستوعب هذا العدد الهائل من
العربات . .

ودور سينا في الحلاء تدخلها أنت وسيارتك . .
وكل العمارات من طراز حديث جداً . مبنية بالبلاستيك والخشب
الماهوجوني . . والحديد . . والمسلح . .

وفي المدينة كنائس ومساجد ومعابد للهند السيخ . . وملاهي
وكباريهات . . ومراقص ونوادي ليلية . . وبنات شقراوات وسمراوات من
كل مكان في العالم . . واليهود منتشرون في كل شبر . . في البلد . .
ومعظم البضائع عليها نجمة إسرائيل . . والبرتقال الفاوى والبطيخ
والخوخ يتدفق من تل أبيب إلى نيروبي كل يوم . .

وفي كينيا ٦٠ ألف إنجليزى وتسعة ملايين من الوطنيين . .
والوطنيون الزنوج من قبائل الماساى . . والماو ماو . . يعيشون على
أطراف المدن وفي الجبال . . في أكواخ . .

وفي تجوالى بين دار السلام . . وموشى . . ونيروبي . . لم أجده الغابة . .
وجدت التمدن الفاجر الباهر . . ولم أجده الغابة . .
لم أر الغابة الاستوائية الحقيقية إلا حينما ذهبت إلى فوهة بركان
جرونجورو . .

والطريق إلى جرونجورو طريق شاق طويل . . وبأحسن وأسرع طرق
المواصلات البرية يحتاج المسافر إلى ١٤ ساعة متواصلة من السفر للذهاب إلى

جرو ونجورو والإياب منها إلى موشى حيث يقطع مسافة تقرب من المسافة بين القاهرة وأسوان .

وقالوا لى فى ذلك اليوم إن جرو ونجورو ترتفع تسعة آلاف قدم عن مستوى البحر . . . وإنها باردة . . . ولا بد أن تأخذ معك ملابس ثقيلة وأخذت معى مايلزم من الصوف . .

وبعد خمس ساعات فى طريق مستوى معبد بدأت أصعد الجبل فى عربة قوية من نوع الجيب . .

وكان الطريق خشناً والعربة تترنح . . . وكنت أنظر بين وقت وآخر لأجد نفسى على حافة جرف ينحدر إلى مهاوى لا آخر لها . .

وكانت الحضرة تزداد تكاثفاً كلما أمعنت العربة صعوداً فى الجبل . وبعد ساعات من الخوف والتوتر توقفت العربة عند محطة فى منتصف الطريق هى « لىك مانيارا » . .

ولىك مانيارا هى بحيرة عذبة يحتضنها الجبل ويقع على ضفتها فندق جميل ونظيف مبنى بالبامبو . . وفيه حمام سباحة وسينما وبار وغرفة طعام فاخرة وغرف نوم بالماء الساخن والبارد . .

وقضيت الليلة فى فندق لىك مانيارا استمع إلى حديث خبير الحيوانات الأمريكى الذى يشرف على الغابة . .

كان يتحدث عن حكمة الحيوان وعن النظام الدقيق السامى الذى يسود الطبيعة الحية . .

قال لى إنهم فطنوا منذ مدة إلى تكاثر التماسيح فى إحدى المناطق

الاستوائية فأباحوا صيدها للحد من تكاثرها الهائل الذى أصبح يهدد بقية الحيوانات البرمائية . .

وأقبل الصيادون يتنافسون فى القضاء على التماسيح . . وسلخها . . وبيع جلودها . .

وكانت النتيجة أن الوطنيين لم يجلبوا غذاءهم الطبيعى من سمك التيلايا فى ذلك العام . . انقرض التيلايا من البحيرات لأن سمك « القط » وهو العدو الطبيعى للتيلايا أصبح طليقاً بعد القضاء على التماسيح . .

وكانت التماسيح فى العادة تعيش على سمك « القط » وتلهم أعداده الهائلة فتفسح السبيل للتيلايا للتكاثر وتتوالد . .

وبهذا كان يتوفر للإنسان غذاء طبيعى شهى من التيلايا كل سنة بما يكفيه وزيادة نتيجة لهذا التنظيم الدقيق للحيوانات بين آكل ومأكول . وفى الطبيعة دائماً ذلك المنطق والنظام الذى يتدخل الإنسان فيه فيفسده . .

وحكاية سيد قشطة الذى تكاثر إلى حد بدأ يهدد معه المزروعات مثل آخر لهذا النظام الدقيق . فحينما صدرت الأوامر بالقضاء على سيد قشطة إنقاذاً للمزروعات لم يكن أحد يتصور أن هذه الأوامر نفسها سوف تكون إيذاناً بإغراق المزروعات وتلفها . . ولكن هذا هو ما حدث . .

وتفسيره بسيط . . فسيد قشطة الذى يمشى على الأرض الرخوة كما يمشى وابلور الزلط كان يتكفل فى أثناء تنقلاته بشق روافد للبحيرات العذبة وفتح الأخاديد العميقة فيها . .

وبذلك كانت مياه الأمطار تجدد دائماً الروافد التى توزعها على الزرع

وحينما كف ذلك الحيوان عن التجول . . وسقطت أعداده قتلى برصاص
الإنسان . . لم تعد الأخاديد تشق وأصبحت البحيرات مسدودة وقاضت
مياه الأمطار وأغرقت كل شيء . .

كلام جميل . .

ولكن هل هو كلام صحيح . .

كنت أفكر في هذه الفلسفة في حكمة الطبيعة .

هل الطبيعة تدبر كل شيء كأحسن ما يكون التدبير . . وليس في
الإمكان أبدع مما كان . . وأى تدخل من الإنسان في الطبيعة إفساد
لحكمتها . .

بهذا المعنى تكون الميكروبات والحشرات والأمراض لها حكمة فهي في
حربها على الإنسان تحقق توازناً ضرورياً فهي تبقى على الأصلح والأقوى
وتزيل الأضعف . . وهي تحدد من التكاثر الإنساني الخطر الذي ينتج من
الأفواه أكثر مما يمكن إطعامه . ولا يجب أن نتدخل في هذه المذبحة
الطبيعية . . بإعلان الحرب على الميكروبات وشفاء الأمراض . . فهذه
حماقة . . وإخلال بحكمة الطبيعة العالية . .

وبهذا المنطق يجب أن نترك الإنجليز يأكلون الأفريقيين . . والأمريكان
يأكلون الزنوج . . فهذا ناموس رفيع للطبيعة تحفظ به توازن الأجناس . .
هل نتبع هذا المنطق الخادع أم نؤمن بأن الطبيعة مخلوقة وان مثلها مثل
كل المخلوقات يمكن أن تخطئ . وخطاياها أفدح . . وحيوانات الديناصور
التي انقرضت عن آخرها . . ونباتات السرخس التي لم يعد لها وجود . .
كلها أخطاء سجلتها الطبيعة على نفسها في حفرياتها وآثارها . .

والمجموعات الكوكبية التى تنفجر وتتبدد فى أرجاء الكون بين وقت وآخر . . دليل آخر . . على أن الطبيعة فيها النقص الذى فى كل المخلوقات . . وأن العطب والفساد فى لبابها وأن الإنسان مستخلف على إصلاحها .

كنت أفكر فى هذا طول الليل . .
وفى الصباح وأنا أصعد الجبل فى العربة الجيب كنت مازلت أفكر فى
التماسيح . . وفى الموت . . وفى الإنجليز . .
وكانت العربة تسير على حافة جبل شديد الارتفاع . . وكان سفح الجبل
مغطى بأشجار كثيفة داكنة الخضرة .

وكان الحور السحيق الذى يهوى إليه البصر عن جانبي لا يبدو له قاع
فقد سدت الأشجار الكثيفة المتشابكة قاعه . . وافرشه دغل طبيعى من
نباتات وحشية ذات تلافيف متعانقة متشابكة فى معترك من الأغصان
والأوراق والأزهار تتوه فيه العين فلا تبين أرضاً . . وإنما خضرة متكاثفة
على خضرة .

وشيثاً فشيئاً بدأت العربة تدخل فى منطقة جرونجورو التى تعج
بالحيوانات الاستوائية . . أربعة آلاف صنف من الحيوان فى مائة ميل مربع
من الأرض . .

وكانت الأشجار قد بدأت تماسك أذرعها من فوقنا لتصنع سقفاً كثيفاً من
التعاريش الخضراء تحجب الشمس أو تكاد . . ولا تدع منها إلا خيوطاً
فضية تشق ظلام الدكنة الخضراء وتلمع على الأوراق كفصوص الماس .
عتمة . . وأشباح أشجار باسقة متعانقة . . وزقزقة ملايين العصافير . .

وعواء آلاف الذئاب والضباع النابحة.. وخوار ثيران وأبقار وحشية..
وصوت أوراق تتكسر.. وأشياء ترحف.. ورياح تصفر.. ورطوبة..
وضباب ينسدل على المنظر فيزيده رهبة.. ولكنه ضباب يتحرك.. سحابة
تبتلع كل شيء ثم ما تلبث أن تعصف بها الريح فتتبدد وكأنها حلم صيف..
ثم تعود تهاويل الأشجار للظهور.. ثم يهبط المطر رذاذاً خفيفاً هامساً.. ثم
سيلاً دقاتاً.. ثم طوفاناً منهمراً يقعقع على أغصان البامبو المجوفة كأنما يعزف
على طبول مشدودة.. ويلمع البرق.. ويزأر الرعد.. ثم يعود الهدوء
وينحف السيل ويعود رذاذاً.. ثم ينقطع وتلمع الشمس على هامات
الشجر.. وتتلاًأ فصوص الماس.

وتتقنق قروء لا عد لها.

إنها الغابة.

ولا يمكن أن توصف الغابة

إن أى وصف يزرى بجلالها.

إن أشجارها لا تشبه مانرى من أشجار فى الشوارع والحدائق أشجارها

سوامق.. فيها عنفوان.. وشموخ.. وزعامة.. وأزهارها محتقنة دموية

وأوراقها ريانة

وأمطارها عاتية مكسحة

وضبابها كثيف متراكم جياش.

إنها مثل نهد مراهق نزق ضيق بالثوب الذى يضمه.. نهر متمرد يكسر

حواجزه وجسوره..

لا.. لا يوجد وصف يحيط بها.. فهى ليست مجرد شكل.. أو صورة

تشاهد . . وإنما هي إحساس . . مذاق . . طعم . . رجفة في القلب . .
وقد شعرت بتلك الرجفة الغامضة وأنا أتنقل بين الشجر وأتسمع ذلك
الحرير ينبعث من مئات الجداول والشلالات الصغيرة التي يعربد فيها الماء
والثلج منحدرًا من القمم .
وكان لابد من استبدال العربية الجيب بعربة أقوى منها عند اقترابنا من
فوهة بركان جرونجورو فالطريق أصبح شديد التعرج . . شديد الصعود شديد
الهبوط . . وكأنه خط كاريكاتورى كثير العبث .
وفي خلال أقل من نصف ميل شعرت من كثرة الحفخضة أن أحشائي
ساخت ، وأن محتويات أمعائى قد اندلقت على بعضها .
وكانت عجلات العربة تكرر كأنها تحرث التربة وتقلبها .
وكانت العربة تهبط السفح في انحدار حاد إلى فوهة جرونجورو
وهي فوهة مساحتها حول مائة ميل مربع . . أشبه بميدان هائل مسور
بسلسلة من الجبال ترتفع آلاف الأقدام .
والحيوانات متروكة في هذه المساحة ترعى وتتكاثر . . وتفترس بعضها في
حياة طبيعية . . جواميس وحشية وثيران وذئاب وأبناء آوى وضباع ونمور
وأسود وفيلة وقرود وغزلان ووعول وحمران مخططة ونسور وصقور .
ورعاة هائمون من قبائل الماساى والماكامبا والمالو ماو يمشون أنصاف عراة
ويبنون أكواخهم وسط هذا المسرح الوحشى ويسرون آمنين كأنهم يسيرون
في بيوتهم .

الماو . . ماو

حياة الغابة على حقيقتها وبساطتها تجدها عند هذه القبائل البدائية التي تسكن أدغال تنجانيقا وكينيا . . عند الماساي . . الماكامبا . . والماو ماو . . وهي شيء آخر غير حياة طرزان . . وروبينصن كروزو . . والسندباد . . غابة الحقيقة . . غير غابات الشعراء ، وهواة المغامرات . . ومحترفي الصيد . .

إنها بالنسبة للصياد والشاعر فسحة يوم . . تغير جو . . ولكنها بالنسبة لمن يعيش فيها . . قدر . . ومصير . . ومجموعة من المؤثرات تعمل على تشكيل حياته وتفكيره كما تعمل يد النحات في الصلصال . . إنها مناخ اجتماعي وليست خطوط طول وعرض . . وأقصر طريق يوصل إلى الغابة هو الطريق الذي يسير عبر الخط الإنساني . . لا الخط الحديدي . . الخط الذي يقف بالقبائل والمجموعات البشرية . . لا بالمراكز . . والمحطات . . فالمحطات الحقيقية هي الحقب التاريخية . . ونقط انتقال الإنسان من مرحلة إلى مرحلة . . البداية هنا تكون من الأول . .

وسوف أبدأ من الأول . . فأخلع غنى ثوب السائح . . وأتمس بعض

الحقائق العلمية عن هذه القبائل .. عن أكبرها .. وأشهرها ..
الماو ماو ..

* * *

والماو ماو ، من أكبر القبائل التي تعيش في الغابات الاستوائية ..
وتعدادها حوالى مليون يعيشون متشرون في هضبة كينيا .. واسمها الأصلي
الكيكويو أو حسب اللهجة المحلية .. الجيكويو ..

وهم يحكون عن نشأتها حكاية تشبه حكاية آدم ..
في البداية كانت الأرض خراب والدنيا خاوية ثم أراد الله أن يعمر
الكون فخلق جيكيويو وأسكنه في أجمل بقعة على هضبة كيرنياجا حيث تنمو
أشجار التين طول العام وتكسى الأرض بالخضرة وتتدلى عناقيد الفاكهة
دانية شهية ..

وبعث له بالخورية الجميلة .. مومى .. لتكون شريكة حياته في هذه
الجنة ..

وتزوج جيكيويو مومى وعاش الاثنان في سعادة وهناء .. وأنجبا تسع
بنات ..

وامتد بهما العمر .. وتعاقبت السنون .. دون أن ينجبا ولداً واحداً ..
وغرق جيكيويو في الحزن .. وأغلق على نفسه باب كوخه .. وركع
لموجاي (الله في لغة الماو ماو) ورفع ذراعيه في ضراعة متوسلاً إليه أن يهبه
إبناً وانهمرت دموعه .. فاستجاب له « موجاي » وأمره بأن يذبح شاة
ويقدمها قرباناً يروى بدمها شجرة التين المقدسة ..

وفعل جيكيويو ما أمره به ربه .. وحينما انتهى من طقوس القربان أمره

ربه أن ينصرف هو وبناته إلى الكوخ ثم يعود إلى الشجرة بعد قليل فيجد أمنيته قد تحققت . .

وكان « موجاي » صادقاً في وعده . . فحينما عاد جيكيويو إلى الشجرة وجد عندها تسعة من الشبان . . كل منهم مثل القمر جمالاً وبهاء . . وهكذا وجد جيكيويو لبناته التسعة أزواجاً تسعة . . ورزق بذرية وفيرة نشأت منها عشائر الجيكيويو التسعة التي انحدرت منها قبائل الماو ماو المعروفة الآن . .

وتقول الأسطورة أن القبيلة كان اسمها في البداية . . قبيلة مومي . تكريماً للأم التي حبلت فيها .

ولكن هذا التكريم كانت نتيجه طغيان نساء القبيلة . فقد اعتبرت كل امرأة نفسها أنها الأصل في القبيلة . . وأنها هي التي أنجبت رجالها . . وأقامت من نفسها حاكمة . واتخذت لنفسها عديداً من الأزواج تتحكم فيهم وتسوقهم إلى العمل في الحقول . وثار الرجال . . وجمعوا كلمتهم . .

وذاث يوم . . بينما كان النساء كلهن حبالى ضعيفات غير قادرات على الحركة . . قلب الرجال نظام الحكم واستولوا على السلطة . . ومن ذلك اليوم تغير اسم القبيلة من أبناء مومي إلى أبناء الجيكيويو ولم يبق من حكم النساء القديم إلا أثر رمزي . . هو أسماء العشائر التسعة التي ظلت تسمى بأسماء بنات الجيكيويو التسع . .

وانتهى نظام تعدد الأزواج . . ليبدأ نظام تعدد الزوجات . . ولكن المرأة ظلت موضع احترام ومهابة . . والأم ظلت لها قداسة .

وإلى الآن مازال سب الأم عند الماوماو جريمة لا تغتفر .
والأم التي تطعن في السن عندهم تصبح لها مكانة روحية عظيمة . .
وتترغم المحافل الدينية . . والزوج يفسح الطريق لحماته عندما تمر به . .
ويقف لها لتجلس . . ولا يعرى جسده أمامها . . وإذا حدث والتقى بها
مصادفة وهو يستحم في النهر . . فإن عليه أن يذبح لها شاة قرباناً
واعذاراً . .

ولكن السلطات الفعلية انتقلت الآن كلها إلى يد الرجل . .
فالأب هو في العادة سيد العائلة وحاكمها والملك الوحيد لكل ما تنتج
من ثمار ومحصول . . وهو أيضاً صاحب الأرض . . وصاحب الكلمة التي
لا ترد . . وكل أولاده وبناته يعاملونه في احترام وتقديس . .
والابن الأكبر تخاطبه العائلة بألقاب التعظيم . . والرجل الذي لا ينجب
ذرية من الأولاد يحزن كثيراً لأنه يعلم أن اسمه سوف ينقرض . . وأن روحه
لن تجد بعد موته سكناً ترفرف عليه ولا أبناء ترعاهم . . وأنها ستظل ضائعة
هائمة .

وملكية الأرض كانت في البداية لمن يفلحها . . ولمن يبنى فيها كوخه . .
وكان المالك يمنح كل زوجة يتزوجها قطعة من أرضه لتكون حديقته الخاصة
ترعها وتجنّي ثمارها هي وأولادها . .
وكانت الأرض تنتقل بموت المالك إلى الأولاد الذكور . . حيث يتزوج
كل منهم ويوزع نصيبه على زوجاته . . وظلت الأرض تتوزعها الأيدي . .
حتى ضاقت ولم يعد هناك حل سوى أن تهاجر القبيلة باحثة عن أراضى
جديدة . .

وهكذا انتشرت الجيكويو جنوباً لتلتقى بقبيلة الجومبا . . . وهى قبيلة أفرادها قصار أشداء يعيشون على الصيد . . . وتقول الأساطير إنهم كانوا يعيشون تحت الأرض . . . ويحفرون بيوتهم فى خنادق ومسارب كما يفعل النمل . . . وأنهم هربوا فى جوف الأرض واختفوا حينما انتشر بينهم الجيكويو . . . ومن ذلك اليوم لم يظهر لهم أثر . . .

والحقيقة أن الجيكويو فى انتشارهم جنوباً تزاوجوا مع أفراد القبائل التى كانت تعيش فى تلك الأمكنة وهى قبائل تعيش فعلاً على الصيد . . . وبهذا تلاشت شخصية هذه القبائل فى شخصية الجيكويو القوية الوافدة من الشمال ولم تختف فى شقوق الأرض كما تقول الأساطير .

وكان الجيكويو يشترون الأرض من هذه القبائل بالمقايضة فى مقابل محاصيل الحبوب والموز وقصب السكر والفاكهة .
وكانت التجارة حرة . . .

ولم يكن نظام العملة النقدية معروفاً حتى دخل الإنجليز فأدخلوا معهم نظام النقد وقيدوا التجارة وفرضوا على كل من يرغب فى التجارة أن يستخرج رخصة . . .

ولم يكن تأجير الأرض للزراعة معروفاً . . . وكان المتبع أن يهب المالك أرضه لمن يشاء من أصدقائه ليزرعها بلا مقابل . . . أو مقابل هدية رمزية من البيرة كعنوان حب ووفاء .

وبالإضافة للأراضى الخاصة التى يملكها الأفراد . كانت هناك الأراضى العامة التى يستغلها كافة أفراد القبيلة كالمراعى . . . والبحيرات . والآبار . . . ومساحات الرقص والاجتماعات . . . والملاعب . . . والغابات التى تقطع منها

الأشجار لبناء البيوت .

وعمليات بيع وشراء الأرض كانت لها طقوس ومراسيم . . فالشارى كان يتقدم عادة إلى المالك الذى يريد أن يشتري منه قطعة الأرض ومعه هدية من البيرة . . ثم يبدأ الاثنان يشربان فى مرح . . ويقول الشارى : ياجارى العزيز أحب أن أعبر لك عن إعجابى بقطعة الأرض الفاتنة التى تملكها . . وأود أن تكون من نصيبى .

فيرد عليه الجار بنفس الأدب والدبلوماسية ثم يبدأ الاتفاق على الثمن وهو عادة رءوس من الأغنام . ثم يجتمع شهود من القرية ويحلف كل من الطرفين اليمين بأنه ارتضى البيع بالثمن المقدم . . وتذبح شاة وتنثر محتويات أمعائها على قطعة الأرض . . وتررع أشجار الورد على حدودها على حين تغنى الجماعة وتنشد أناشيد فيها تقديس للأرض وخصوبتها . . ويردد المالك الجديد اللعنات على كل من تسول له نفسه باقتلاع شجراته وتخریب حدوده .

ثم تقطع من جلد الشاة شريحتان يلف بهما كل من الطرفين معصمه علامة لوحدة الأرض بينهما ثم تقام وليمة تدار فيها أكواب البيرة . وتوزيع العمل فى الماو ماو يقوم على أساس اشتراك الرجل والمرأة فى جميع الأعمال .

النساء يقمن بطهى الطعام وتخمير البيرة وطحن الحبوب وغسل الأوانى وتنظيف الكوخ وكنس الأراضى من حوله . وهن كذلك يجمعن الخشب من الغابة للوقود ويبذر البذور ويظهرن الزرع من الأعشاب ويجمعن المحصول وتحملنه لبيعه فى السوق . . وهن يصنعن الفخار . . ويغزلن السلال من

الخيزران . . وهن يشتركن فى بناء الأكواخ فيصنعن السقوف من القش ويدهكن الجدران بالروث وبالطين . . وينسجن الثياب من جلود الحيوان . والثياب الأوروبية بدأت تغزو الجيكويولكن النساء مازلن محافظات يفضلن ثيابهن من الجلود ويعتبرن الملابس الأوروبية وسيلة لستر شوهات الجسم . . وكثيراً ما تطلب أم العروس أن يتعري العريس أمام شهود إذا كان يلبس الملابس الإفريقية حتى تضمن أنه ليس مشوهاً .

والرجال بدورهم يقومون بالأعمال الثقيلة فيعزقون الأرض ويدكون الطرقات ويشقون الأخوار ويقيمون الكبارى ويحرسون الزراعة ليلاً ويشغلون بالصيد وبالحدادة ونحت الخشب ورعى الماشية . . وهم يذبحون الحيوانات ويسلخونها ويدبغون جلودها . . والأولاد يخلبون الماشية . .

والأطفال يتدربون على العمل فى حدائق صغيرة يزرعونها فى أوقات لهوهم . .

والجيكويو يزرعون الموز وقصب السكر والذرة والشعير والفول والبطاطا والبطاطس ويربون النحل ويرعون الماشية ويعتمدون على الصيد فى الحصول على طعامهم من اللحم وهم فى السوق يبادلون سلة الحبوب فى مقابل سكين صغيرة . . أو أربعة سلال من الحبوب فى مقابل عترة واحدة أو بقرة فى مقابل عشرة خراف . . وهم يعتبرون الأغنام نوعاً من العملة النقدية فيدفعونها فى الزواج ويشترى بها ما يحتاجون إليه من السهام والخراب . . ويدفعونها دية إذا حكمت محكمة القبيلة بدية . . ويقدمونها قرابين . . ويأكلون لحمها . . ويلبسون فراءها .

والأبقار عنوان ترف عند الجيكويو . . لا يذبحونها . . ولا يتخذون لحمها طعاماً . .

وهم في العادة لا يعتمدون على لبنها كثيراً في غذائهم . . وهم يفضلون ذبح الثيران في الولاثم . . ومع هذا فالأغنياء يحرصون على اقتناء الأبقار كعنوان للترف والغنى . .

والجيكويو عرفوا صناعة الحديد واستخلاصه من خاماته من عصور بعيدة . . وهم يحكون في الأساطير أن الحيوانات كانت تذبح وتسلخ في العصور القديمة بسكاكين خشبية . . وأنها كانت تتألم . . ولهذا قررت الفرار من الأكواخ والاحتفاء بالغابة هرباً من هذه الطريقة الوحشية في الذبح . . ومن هذا اليوم وهي تنتشر في الأحراش كحيوانات مفترسة بعد أن كانت حيوانات مستأنسة أليفة .

وحينما توسلوا إلى الرب أن يلهمهم طريقة في الذبح تريح الحيوان ألهمهم استخلاص الحديد وصناعة الأسلحة . .

والحدادون من الجيكويو يجلبون الخام ويطحنونه ويخففونه في الشمس ثم يشعلون الفحم ويضعون فوقه الخام ثم يغطونه بطبقة أخرى من الفحم ويرشون البيرة على الخليط . وهم يرتلون طقوساً دينية وتعاويذ . . ثم ينفخون في الكور . . ويوالون النفخ من الفجر إلى الغروب حتى يتم اختزال المعدن وينصهر ويرسب في قاع الفرن على شكل أقراص مستديرة يطرقونها إلى صفائح يصنعون منها السكاكين ورءوس الحراب وأسنة السهام . .
والماو ينظرون إلى الحدادين نظرهم إلى السحرة والكهان والحكماء ، ويعاملونهم في رهبة وتقديس . .

وفن البناء عند الماو ماو له طقوس . . وهو عندهم عمل جماعى يشترك فيه الكل بلا أجر . . فينتشرون فى الغابة رجالاً ونساء يقطعون الأشجار ويجمعون أعواد القش . . وفى اليوم المعين للبناء يقيم صاحب الكوخ وليمة لجيرانه وأصدقائه . ثم يبدأ العمل فى الصباح برش اللبن والبيرة وتلاوة الصلوات فى المكان . . ثم يقوم النسوة بكنس الأرض وتمهيدها . . ثم ترسم دائرة كبيرة ترشق فى محيطها دعامات من فروع الشجر يرسى حولها السقف ثم يبدأ النساء فى دهك الجدار بالطين والروث وتغطية السقف بأعواد القش وفى هذه الأثناء يتبادل الرجال والنساء الأغاني المرحية . . فيقول الرجال وهم يغنون . .

أنتن يا نساء كسالى كالسلاحف . . لقد انتهينا من بناء هيكل الكوخ . .
وأنتن تسرن فى تراخ كالحبالى تحملن القش .
فيرد النساء وهن ينشدن . .

وماذا يفيد هيكل من فروع الأشجار فى حماية المسكن من الأمطار . .
إننا نحن اللاتى نجعل من هذا الكوخ كوخاً بهذا القش الجميل تنسج به البناء كما تنسج البلابل أعشاشها . . أما أنتم يا رجال فلا تأخذ منكم إلا الثثرة . .
ويظل الرجال والنساء يتداولون هذا الغناء المرح حتى ينتهى البناء قبل الغروب فيعمد أكبر الموجودين إلى جرة الشراب يصب منها البيرة فى قرن بقره ثم يمسك القرن بيديه الاثنتين ويتلو صلاة لأجداده يطلب فيها البركة والسلام . . ثم يشعل اثنان من الأطفال الموقد فى وسط الكوخ . . وتنهى بذلك مراسيم البناء .

ومن تقاليد الجيكويو ألا تمارس المرأة الاتصال بزوجها جنسياً إلا فى

داخل كوخها . . وفي الليل . .

وإذا تم الاتصال بالنهار فإنه يكون حراماً . . وإذا تم والطعام يطهى على النار فإن الطعام لا يكون صالحاً للأكل ويعتبر ملوثاً . .

وطهور البنات والأولاد في الجيكويو يتم بين ١٢ و ١٦ سنة ويعتبره الجيكويو حادثاً هاماً يقيمون له الحفلات والطقوس والمراسيم وينشدون الأناشيد الدينية ويرقصون ويغنون . .

وتقوم بإجراء الطهور امرأة عجوز مختصة بهذه الجراحة . تلبس زياً كرنفالياً مربعاً وتطلى وجهها بمادة بيضاء كالسيداج . .

ويبقى الأولاد والبنات في كوخ العجوز مدة تتراوح بين ٧ إلى ١٢ يوماً يعالجون فيها بمنقوع أعشاب خاصة قابضة مطهرة . حتى تلتئم جراحهم ثم ينقلون إلى بيوتهم حيث يعيشون ثلاث شهور في غناء ورقص ومرح . . وتقام في ختام المدة حفلة تمثيلية تمثل فيها الأمهات أدوار الولادة والطلق ، وتذبح شاة وتصنع من أمعائها حبال يوثق بها الأولاد والبنات ، ثم تقطع رمزاً للحبل السرى الذى قطع إيذاناً بميلاد الجيل الجديد من البالغين الذى تم نضجه وميلاده . .

ثم تقام حفلة راقصة يلبس فيها الأولاد لباس الحرب ويطلقون أجسامهم بالطلاء الأحمر ويرقصون بالحراب . وتلبس البنات الخرز والجلود المطرزة الأنيقة ويرقصن . . وتنتهى بذلك طقوس الطهور . .

ومن تقاليد الجيكويو السماح بالعلاقات الجنسية بين الأولاد والبنات بعد الطهور . . ولكنها لا تكون علاقة جنسية كاملة . . وإنما لون من الغزل الجنسى يحتضن فيه الولد البنت ويلهو معها كما يشاء دون أن يفقدها

بكارتها . . . ويسمونه . . . عندهم « أومباني ناجويكو » .

وهذه الممارسة لها طقوس خاصة ولها احترام ديني . . . فالأولاد والبنات يجتمعون في أكواخ خاصة تعد لهذا اللون من الغرام . . . وكل حبيبة تجلب لحبيبتها الفواكه واللحم والبيرة . . . ويقضون نهارهم في الرقص والغناء والشرب وإذا كان عدد الأولاد أكثر من عدد البنات فإن البنات يخترن ما يوافق مزاجهن من الأولاد . . .

والعادة أن يقوم أحد الأولاد وهو يتأشب قائلًا . . . أنا ذاهب لأتمدد . . . ثم يدخل إلى الفراش فتتبعه حبيبته حيث يخلع عاريًا وتخلع هي قميصها وتحتفظ بقطعة من الثياب حول نصفها الأسفل . . . ثم يندمج الاثنان في النجوى والغزل والعناق والعبث . . . حتى تخور قواهما فيناما نومًا عميقًا . . . وتبادل القبلات بالشفاه غير معروف عند الجيكويو . . .

ويبدو أن هذه الممارسة هي الطريقة التي يقبلون بعضهم بعضًا بدلا من الاتصال بالشفاه . . .

« وأومباني ناجويكو » لها حدود لا يسمح بتجاوزها . . . وحينما يحدث الاتصال الجنسي الكامل والحمل نتيجة « الجويكو » فإن الرجل يعاقب بدفع دية من تسع خراف وتعاقب البنت بعمل وليمة كاملة لبنات جنسها . . . وتكون محل نقد شديد من الجميع . . . ولا يسمح للرجل بعد هذا بالجويكو إلا بعد أن يقوم بطقوس التوبة والتطهر . . .

ولا يعتبر الابن الناتج من هذه العملية ابن حرام . . . إنما يستقبل كأى ابن من أبناء العائلة . . .

وكثيراً ما تحدث مخالفات الجويكو دون أن تكتشف لأن الاثنان تعجبهما

- الحكاية الجديدة - فيستمران فيها . . وتمر المشكلة بسلام طالما أن الاثنين يأخذان حذرهما من الحمل . .

والروميو الذى يشتهر بين البنات إسمه عندهم . . « كيومبانى » . . وأحياناً تبلغ من جاذبية الكيومبانى أن تكون له أربعين حبيبة فى وقت واحد . .

ومن المعتاد أن يمارس الأولاد العادة السرية قبل الطهور . . والكبار ينظرون إلى هذه المسألة على أنها شىء طبيعى . ونوع من التأهب والاستعداد للممارسة الجنسية فيما بعد . .

ومن المعتاد أن يتبارى الأولاد فى إظهار كفايتهم فى هذه العادة ويكون ذلك فى الخلاء بعيداً عن البيوت . .

أما بعد الطهور . . فإن ممارسة هذه العادة تعتبر مثاراً للسخرية إذ لا يعود هناك داع . . فى إمكان الجميع أن يمارسوا « أومبانى ناجويكو » .

والشدوذ الجنسى غير معروف فى الجيكويو . . واتخاذ أى وضع غير طبيعى فى الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة جريمة يحرمها الدين تحريماً شديداً . .

والاتصال الجنسى محرم بين أبناء البطن الواحدة . . والإخوة والأخوات والعمت والخالات . . لا يجوز لهن التزاوج أو الاتصال الجنسى .

* * *

وبالرغم من هذه الحريات الجنسية الواسعة بين أفراد الماوماو . . هناك إقبال شديد على الزواج . . والواحد منهم لا يكتفى بزوجة واحدة . . بل

يتزوج عليها ثانية وثالثة ورابعة إلى الخمسين والستين زوجة . .
والرجل عندهم لا يعتبر رجلاً ولا يحظى بالاحترام إلا إذا تزوج وابنتى
كوخاً وأنجب ذرية . .

والزواج عندهم له أهمية دينية وروحية فالأرواح لا تستقر بعد الموت
ولا تسكن إلا إذا وجدت منزلاً تنزل فيه وذرية وفيرة ترعاها وتمنعها
بركتها . . وبدون الذرية تفقد الروح صلتها بالأرض وتتشرد في الظلمات
ولا يربطها بالعالم اهتمام ولا عاطفة .

والزواج يبدأ عادة بالتعارف . . وقد تنشأ علاقة طويلة . . وحينما يأنس
الرجل في نفسه الحب للفتاة التى اختارها فهو فى العادة لا يذهب لخطبتها
ولمّا يبعث أصدقاءه . .

ويذهب أصدقاؤه إلى بيت العروس ومعهم هدية من البيرة ثم يقول
أحدهم فى تلميح . . ما رأى ست البيت الجميلة فى أن تضم إلى كوخها
رجلاً مشرداً ليس له بيت . . فتسأل الفتاة فى خجل . . ومن يكون هذا
الرجل .

فيقول لها اسم صاحبه . . فإذا وافقت فلأنها تمهله لزيارة أخرى وأخرى
من باب الدلال . . ثم تقول له فى الزيارة الثالثة أو الرابعة إنها موافقة . .
ولكن الأمر بيد أيها . . وإذا لم تكن موافقة فلأنها تقول له من البداية إنه
ليس فى كوخها مكان لأحد .

وفى حالة الموافقة يبعث العريس بأبيه وأمه إلى بيت العروس ومعهم
هدية أخرى من البيرة . . وفى جلسة عائلية يشرب الجميع البيرة . . وتأخذ
العروس رشفة علامة القبول .

ويحتفل العريس بالمناسبة ويذبح شاة ويدعو أفراد العائلة ويسكر الجميع ويأكلون ويغنون ويرقصون .

ثم يبدأ العريس في دفع المهر على أقساط من رءوس الغنم . . حتى تبلغ الدفعات التي قدمها من ثلاثين إلى خمسين رأساً فيحدد يوماً . . لعقد الزواج .

وفي اليوم المعلوم يذبح ثوراً ويدعى الجيران ، وتدار الخمر ويغنى الجميع وينشدون أناشيد الفرح وتتلقى العروس الهدايا من أقرانها . . ويبدأ العريس في بناء الكوخ وتأسيسه . .

وتنتقل العروس من بيت أبيها إلى كوخ عريسها ، والعادة أن يكون هذا الانتقال بطريقة مسرحية . . فتسلل صديقات العروس في الفجر ويخطفن العروس ويأخذونها عنوة إلى بيت عريسها . . مكتوفة اليدين والرجلين . . وهي تصرخ وتولول هاتفة بطريقة تمثيلية . . لا أريد هذا الرجل . . لن أذهب إلى رجل لا أحبه . . الزواج لا يكون بالإكراه . . لن أترك بيت أبي . . لن أترك أمي . . أين أنت يا أمي . . أين أنت يا أبي . . أنقذوني . . الحقوني . . ياناس . .

ويستغرق الجميع في الضحك والعروس ماضية في الصراخ . . وصاحباتها ممسكات بها لا يتركنها . . حتى يصل الموكب بيت العريس . . فيلقين بها بين أحضانه . .

وبينا يهلل الجميع بالأغاني المرحية تنطوى العروس في غرفتها تغنى الأغاني الحزينة باكية على حياتها القديمة وعلى فراق أهلها وخلانها . وتظل تردد هذه الأغاني سبعة أيام . . وفي اليوم الثامن تخرج لتزور بيت

أيها وتعود محملة بالهدايا . . وأحياناً تعود ومعها بقرة . .
وبهذا تنتهى مراسم الزواج . . ويبدأ الزوجان حياتهما العادية . .
ومن المعتاد أن تقول الزوجة لزوجها بعد مرور سنة وبعد أن تكون قد
رزقت بطفلها الأول . .

يازوجى العزيز . . إننا نعيش فى بحبوحة من الرزق . . ولنا طفل جميل
وبيت واسع وأرض كثيرة ألا ترى أنه قد آن الأوان لكى تتزوج وتضم إلى
بيتنا زوجة ثانية . .

يازوجى العزيز . . إني كما ترى مشغولة بالطفل . . ولا أجد الوقت
ولا القوة لأذهب إلى الغابة لأجمع لك الأخشاب وأجلب لك الماء . .
وأنت فى حاجة إلى زوجة ثانية تخدمك وترعى ضيوفك . . وأنت بحمد الله
صحيح البدن موفور العافية . . وهذا هو الوقت لتسعد بزوجة أخرى تجلب
لك أطفالاً آخرين يملئون علينا البيت بالمرح . . والمثل يقول . . إن النهر
الجارى لا ينتظر العطشان . . وقد آن الأوان لتكون لى رفيقة أسعد بها . .
ما رأيك فى فلانة بنت فلان . إنها جميلة وطيبة وجذابة . . ما رأيك فى أن
تعمل على كسب قلبها . . وإذا كان المهر يعوزك فإن أقاربى فى سعة من الرزق
ويمكنهم مساعدتك . يازوجى العزيز لا تحيب رجائى . .

وهكذا يذهب الرجل ليخطب زوجة ثانية ثم زوجة ثالثة ورابعة بنفس
الطريقة . . وإذا كان غنياً وقادراً فإن زوجاته يتضاعفن إلى خمسين زوجة
وأكثر .

ولا توجد غيرة بين الزوجات . . وكل زوجة تنفرد بكوخها الخاص
وقطعة الأرض التى تررعها والأغنام التى تربىها . . والزوج ينحصر لكل

زوجة يوماً أو يومين في الشهر . .

والزوج أيضاً لا يغار على زوجته . . وفي العرف المتبع أن الضيف الذي يتزل في بيت الجيكويو يكون له الحق في الاستمتاع بزوجة من زوجاته . . وإذا كان الضيوف كثيرون فإن كل زوجة تختار من يميل إليه قلبها من الضيوف لتدعوه إلى كوخها وتقضي الليل بين أحضانها . .

والأطفال الذين ينتجون من هذه العلاقة يكونون من حق الزوج . . والزوج لا يلتفت إلى هذه المسائل طالما أنها تحدث علانية أمام عينه وبعلمه . . أما إذا قابلت الزوجة في كوخها رجلاً في الخفاء فإنها تكون مخطئة خطأ كبيراً . . وكذلك الرجل الذي يعاشرها في الخفاء . . وعلى الاثنين أن يدفعوا غرامة عددًا من الأغنام . . وأحياناً يكتفى الزوج بأن يضرب زوجته علة ولكنه لا يطلقها . .

وسبب الطلاق الوحيد المشروع هو العقم . . وفي هذه الحالة يدعو الزوج رجلاً آخرين لمعاشرة زوجته . . أملاً في أن تحمل من أحدهم . . فإذا لم تحمل بعد محاولات متكررة يطلقها . .

وقد يطلق الرجل زوجته بسبب الكسل والإهمال وعدم رعاية البيت والأولاد وعدم تعاونها معه في الحقل .

والعائلة في العادة تقوم باختصاص محاكم أول درجة فتتظر المشاكل التي تنشأ في محيطها وينعقد مجلس من الكبار تدار فيه أقداح البيرة وتسكب بعض من هذه البيرة على الأرض لتشرها أرواح الأجداد وترتل الصلوات ويدلى كل خصم بشهادته ويحكم كبير العائلة بما يراه . . فإذا قبل المتخاصمون تقام وليمة شكر ويتصافح الجميع . . وإذا لم يقبلوا تحول القضية

إلى « الكاياما » وهى محكمة القبيلة . .

وتنعقد « الكاياما » تحت شجرة حيث يجتمع أشياخ القبيلة وكبار السن فيها ويجلسون فى نصف دائرة . . ومن خلفهم شباب القرية . .

وتفتح الجلسة بتلاوة صلاة تقليدية . . ويتقدم الطرفان المتخاصمان بدفع رسوم القضية وتتفاوت حسب نوع القضية من جرة من البيرة إلى عدة رؤوس من الغنم . . ثم يعرض كل طرف شكواه ويقدم شهوده ويدور نقاش قانونى بين الموجودين يشترك فيه من يشاء . . ثم ينتخب الموجودون هيئة من القضاة من بين الحاضرين . . ويتحى القضاة مكاناً بعيداً للمداولة فى حين تذبح الشاة أو العنزة التى قدمها المتخاصمون رسوماً لقضيتهم وتشوى على النار ويوزع لحمها على هيئة المحكمة حسب أقدميتهم . ثم يقف الحاجب وسط الدائرة ويعلن الحكم الذى وصل إليه القضاة . .

وفى العادة يقبل الطرفان الحكم . . وفى الحالات القليلة التى لا يقبلان فيها تنظر القضية مرة أخرى فى جلسة استئنافية .

وقانون العقوبات فى الماو ماو ليس فيه أحكام بالسجن أو الإعدام ، وإنما الأحكام كلها هى أحكام بالتعويض والدية والغرامة . . حتى فى جرائم القتل . . يدفع فيها المتهم غرامة . . أو تتضامن عائلته فى دفعها نيابة عنه . . والحالة الوحيدة التى كان المتهم يعدم فيها . . هى حالة اتهامه بممارسة السحر الأسود . « أورو جى » وثبات التهمة عليه . . وفى هذه الحالة كان الساحر يحرق حياً .

والسلطات البريطانية تمنع الآن تنفيذ أمثال هذه الأحكام .

* * *

وديانة الماو ماو فيها كثير من الشبه بالأديان السماوية ، فهم يؤمنون بإله واحد يسمونه « موجاي » خالق لكل الأشياء . . رازق . . مقتدر ، واهب للخيرات والنعم . . سميع الدعاء . . جبار . . منتقم . . يسكن السماء ولكنه ينزل إلى الأرض ليتفقد عبده ويكافئ الصالحين منهم .

وهو واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفواً أحد . . وليس كمثله شيء . . ولكنه يعرف من آثاره وأفعاله . . البرق خنجره الذى يشق به طريقه أينما سار . . والرعد وقع خطاه :

والله عند الجيكويو كبير . . لا يصح دعوته للمسائل الفردية التافهة . . ولا يدعى إلا للكوارث الكبرى التى تهدد القبيلة . . أما نجدة الأفراد فيكفى فيها الاتصال بأرواح الأسلاف والأجداد .

والجيكويو ليست لهم معابد . . وإنما لهم أشجار مقدسة يقدمون عندها قرايئهم ويتلون صلواتهم .

والصلاة عندهم ليست روتيناً يومياً . . وليست فريضة دورية تؤدى فى كل الأوقات . . وإنما هى تؤدى وقت الحاجة فقط لأنهم يعتقدون أن الله عظيم ولا يصح إقلاقه بالأدعية والنداءات بمناسبة وبدون مناسبة .

والله ليست عنده هيئة من الرسل والأنبياء يبعث بهم للتبشير بأوامره ونواهيه . . وإنما هو يفعل مايشاء مباشرة بلا وساطة . . يضع مايريد أن يقوله فى رءوس الناس مباشرة بدون وساطة جبريل .

والجيكويو لا يحزن لما يقضى به الله . . فحينما يموت له طفل فهذا قضاء الله . . وهذه إرادته . . والله هو الذى يعطى . . والله هو الذى يأخذ . . وحينما يمرض أحد الأفراد فإنه لا يلجأ إلى الله وإنما يلجأ أولاً إلى الطبيب

ليصف له الأعشاب المناسبة . . فإذا لم يفلح . . يلجأ إلى السحرة ليتصلوا
بأرواح أجداده لاسترضائها . . فإذا لم يفلح السحر . . فإنه يلجأ أخيراً إلى
الله .

والجيكويو لا يعبدون الأجداد والأسلاف ولكنهم يلجئون إليهم ليكونوا
شفعاء عند الله .

وتقدس الأجداد والأسلاف مثل احترام الآباء وكبار السن جزء من
ديانة الجيكويو . . والابن حينما يخطئ في حق أبيه يقدم له شاة أو عترة .
والأبناء يختصون آباءهم بأشهى الأطعمة ، وحينما يذبحون شاة يعطون
لسانها وكبدتها ولحم ظهرها لآباءهم . .

وطقوس الأجداد والأسلاف ليست عبادة ولكنها احترام وإجلال .
وهي لا تفرق كثيراً عن فكرة الأوروبي حينما يقيم نصباً تذكاريًا للجندي
المجهول يرمز به إلى كل الموتى الذين ضحوا بأنفسهم من أجله .
والموتى يمثلون عند الجيكويو هيئة كاملة لمعونته وخدمته وإرشاده . إدارة
كاملة من أرواح الآباء والأجداد وأرواح رؤساء العشيرة ومجلس أعلى لهذه
الإدارة من أرواح ومشايخ القبيلة .

ولا يوجد كهان ولا قساوسة بين الجيكويو . وإنما الأب والإخوة الكبار
في كل عائلة هم الذين يعلمون الأطفال دينهم .

ولكن هناك الأخيار والأبرار الذين يصطفاهم الله ويطلعهم على
أسراره . . وهم في كل قبيلة يوكل إليهم أمر التنبؤ وكشف المستقبل ومعرفة
دلالات الغيب .

وحينما يتأخر نزول المطر ويطول موسم الجفاف يتجه نظر القبيلة إلى هؤلاء

المختارين يسألونهم السبب في هذه النعمة الإلهية . .
وفي العادة ينصح هؤلاء بتقديم قربان . . ويحددون مواصفات
القربان . . حمل أسود . . أو عترة بيضاء .
ويبدأ الاستعداد لطقوس القربان . . ويشترك في الموكب الشيوخ
والعجائز من النساء اللاتي تجاوزن سن الإنجاب . . والكبار الذين ينضمون
إليهم يراعون الصيام عن كل اتصال جنسى لمدة ثمانية أيام .
ويذهب الجميع إلى شجرة التين المقدسة . ويبدأ أكبر الموجودين في
ترتيل الصلاة يجاوبه كورس من الباقيين في أصوات خاشعة .
ربنا يا من تجعل الجبال ترتجف . . والأنهار تفيض والأمطار تهطل . .
ربنا إن أطفالنا جوع . . وأغنامنا عطشى . . وأراضينا تحرقها الشمس . .
وهذه ذبيحتنا عند قدميك . . وهذا أجود ما عندنا من عسل النحل المخمر
واللبن . . نسكه بين يديك . . ليرضى قلبك عن أبنائك ولتنزل عليهم
المطر .

ويأخذ المرتل رشفة من البيرة ثم يبصقها على الأرض لتشرب معه أرواح
الأجداد . . ثم يبدأ الموكب يطوف حول الشجرة المقدسة سبع مرات وهو
يرش البيرة واللبن حول الشجرة وتوثى بالضحية وتقتل خنقاً ثم تسلخ ويشوى
لحمها وتلف أمعاؤها حول جذع الشجرة ويعطى الموجودين نصيباً من
اللحم . . ويحرق الباقي لله .

ومثل طقوس المطر توجد طقوس أخرى للزراعة . . وطقوس لحماية
المزروعات من الحشرات الضارة . . وطقوس لمقاومة الأمراض والأوبئة .

* * *

والسحر جزء لا يتجزأ من حياة الماو ماو .

وهم يسحرون لجلب الحب . . . ويسحرون للعلاج . . . ويسحرون لمقاومة
الأرواح الشريرة . . . ولإخصاب الزرع . . . وللوقاية من الحيوانات المفترسة .
وهناك سحرة محترفون يقضون نهارهم في تجهيز الأعشاب السحرية
ودقها وسحقها وتركيب الوصفات السحرية وصناعة الرقى والأحجية .
والسحر بالحب له طرق مختلفة عند الجيكويو . . . وفي إحدى هذه الطرق
يضع العاشق غصناً صغيراً من شجرة « أومباني » تحت لسانه بعد أن يقرأ
عليها الساحر طقوس الحب السحرية . . . حتى إذا التقى بحبيبته طارحاً بغرامه
فتقع في حبه لفورها . . .

وحومو كينياتا الزعيم المعروف . . . وهو من الجيكويو يذكر في كتابه عن
كينيا أنه جرب هذه الوصفة وأنها نجحت في استمالة قلب حبيبته . . .
والطريقة الثانية أن يحصل الحب على خصلة من شعر حبيبته أو قصاصة
من أظافرهما ويعطيها للساحر فيخلطها بأعشاب السحرية ويضعها في حجاب
يقسمه نصفين . . . نصف يعطيه للعاشق والنصف الآخر يدسه في فراش
الفتاة .

ويقول العاشق وهو يضم يديه على الرقية :

أيها القوى السحرية . اجعلها تحلم بي في نومها . . .

احملني إلى أذنيها همساتي وأفكارى لتعيش مثلى في انشغالي . . .

وفي نصف الليل حيناً يهدأ كل شيء يخاطب محبوبته قائلاً : يا حبيبتي . . .

افتحي قلبك لتسمعي كلماتي . . .

لقد أرسلت إليك همسة الحب السحرية مع شعاع الفجر . . . أداعب بها

قلبك حتى يلين ويمتلئ وجدًا وصباة ..

وهناك سحر آخر شرير يسمونه السحر الأسود «أوروجى» والساحر

الذى يمارس هذا النوع من السحر يسمونه «الموروجى» ..

والموروجى يصنع تماثله من مسحوق الأعشاب السامة يخلطها بأعضاء

آدمية .. عيون آدمية .. وأعضاء تناسلية منتزعة من الجثث المتعفنة ..

وحلمات نهود بشرية .. وجذاذات من الأيدي والأرجل والآذان ودم

متجمد .. وهو يحصل على هذه الأجزاء بقتل ضحاياه بالسّم واستدراجهم

فى الغابة حتى يموتوا فينقض عليهم ليقطع شرائح من كل مكان خبيث فى

أجسامهم .. ويحفف هذه الأجزاء ويسحقها ويخلطها بأعشابه السامة

ويصنع منها تماثله السوداء التى يقرأ عليها تعاويذه الشيطانية .

وأحياناً يصنع منها شراباً قاتلاً .. أقل جرعة منه تقتل لساعتها :

«الموروجى» يعيش منعزلاً متوحداً .. يتنقل متخفياً بين الكهوف

والغابات ينام بالنهار ويصحو بالليل كالبوم والحفاش .. وقديماً كانت

سلطات القبيلة تطارد هؤلاء السحرة وتقبض عليهم وتحرقهم أحياءً ..

والسلطات البريطانية تمنع الآن هذه العقوبة .. وتستبدل بها عقوبة

السجن .. تطبقها على جميع السحرة .. الذين يسحرون للنفع أو

للضرر ..

ذات ليلة جلس الساحر «موجا واكبيرو» بين أتباعه من الجيكويويروى

لهم الحلم الغريب الذى رآه فى منامه .. وكيف أنه رأى رجالاً بيضاً يقبلون

من البحر وفى أيديهم عصى تخرج من أفواهها النيران .. ويمدون على

الأرض ثعباناً من الحديد .. وكيف أنه رأى الثعبان الحديدى يمشى ويتنعم

فى طريقه كل شىء . . .

وكان الجيكويو من حوله . . . يحملقون ذاهلين . . . كأنهم يستمعون إلى
أسطورة من أساطير الجن . . .

كان هذا منذ مائة عام . .

ولم يكن ذلك الحلم أسطورة من أساطير الجن . . . وإنما كان تاريخاً .
فقد صدقت رؤيا « موجا واكيرو » وتحققت نبوءته بعد سنوات
قلائل . . . ونزل الإنجليز إلى القارة ومعهم البنادق . . . ومدوا الخط الحديدى
بين كينيا وأوغنده (الثعبان الحديدى الذى ابتلع فى طريقه كل شىء) .
وقد ابتلع الإنجليز فى طريقهم كل شىء . . . ونشروا الذعر أينما حلوا ،
وروعوا النفوس ومسحوا العقول وأتلفوا الأبدان بما جلبوا من أمراض
فتاكة . . .

مع حملة ستانلى التى جاءت إلى أوغندا جاءت ذبابة تسي تسي ومعها
مرض النوم إلى جنوب السودان . . .

ومع السفن المحملة بالعتاد التى كانت تتقاطر على الشاطئ الأفريقى جاء
السل . . . والزهرى . . . والسيلان . . . لينتشر فى القارة ويرعى فيها كما ترعى
النار الهشيم . . .

وكانت الحضارة الغربية بالنسبة للوطنى من أهل البلاد صدمة . . . كانت
شيئاً كالسحر . . .

البندقية . . . والقطار . . . والسيارة . . . والكهرباء والراديو . . . والقراءة
والكتابة . . .

هذه الحروف الشيطانية التى يكتبها ذلك الرجل الأبيض على الورق

وينقل بها أفكاره ورغباته بسرعة البرق . كانت شيئاً يذهلة ويصيب عقله بالدوار .

ونظر الأفريقي البدائي حوله فرأى حياته تنهار . . وكل ما فيها من معالي يتحطم . . أديانه . . معتقداته . . عاداته التي نشأ عليها . . أرضه . . بقراته . . عالمه الحبيب الذي ارتبط به . . داسته الأقدام .

وأصابة داء عجب الطب عن علاجه . . هو داء اليأس . . والتعب النفسى . .

وهلكت قبائل واختفت . . مثل قبائل الماورى . . وانقرضت قبائل أخرى . .

قبيلة الزاندى التي كانت من أكبر قبائل أفريقيا عدداً تضاءلت حتى أصبحت في عداد المليون .

الماو ماو . . والماكامبا . . والماساى . . نقصت مواليدها حتى أشرفت على الفناء .

سكان أستراليا الأصليون . . لم تبق منهم إلا بضعة معدودة في الصحارى .

وراح المستعمر يتبجح في كل مكان بأنه ينشر المدنية . . في مجاهل لا تعرف مدنية . . وينشر النور والعرفان . . بين متوحشين ليس في حياتهم قيم ولا أخلاق . .

والحقيقة أنه أخذ الكثير من قيم هؤلاء المتوحشين وعاداتهم وأدخلها في حضارته . .

تعلم منهم شرب الشاي والكاكاو والقهوة . . وأخذ عنهم عادة التدخين

.. وشرب الغليون ..
ولطش الفنون الأفريقية التشكيلية .. والموسيقى الأفريقية .. وإيقاعات
الجاز .. والرقص ..
وأخذ عادة العرى .. وجعل منها فناً وفلسفة .. وأنشأ نوادى للعرافة فى
أكثر عواصمه تقدماً ..
وأخذ الحرية الجنسية من المجتمع البدائى لتغدو بعد ذلك سمة من سمات
أرقى مجتمعاته ..
وأصبحت « الأومبانى ناجويكو » من تقاليد البنات والأولاد فى المجتمع
الأمريكى .. يمارسونها .. قبل الزواج .. ويسمونهم فى بلادهم

Huyying And Necking

والحرية الجنسية ذاتها أصبحت نظرية ينادى بها فلاسفة أمثال فرويد ،
والسحر .. والمعارف الغيبية .. والأرواح .. أصبح لها كرسى فى أرقى
الجامعات الأوربية ..

لم يكن الأفريقى متوحشاً ..

ولم تكن حضارته .. بربرية متأخرة ..

والحق أن هذه البربرية احتوت على الكثير من اللمحات .. التى فانت
على الرجل الأبيض صاحب العلم .. والنور والعرفان ..
كان اتصال الغرب بالشرق فى أفريقيا تراوَجاً متبادلاً .. فقد أعطى
الأفريقى كل شئ .. أرضه وبلده .. وجسمه .. وروحه .. وكان المستعمر
شحيحاً جداً يعطى بالقطارة ..

احتفظ لنفسه بأسرار العلم والصناعة والمعارف العلمية .. واكتفى بنشر

اللغة الإنجليزية . . وتوزيع نسخ من الإنجيل .
وكانت السياسة التعليمية في المستعمرات توجه نحو الدراسات النظرية
ونحو خلق طبقة من الموظفين أصحاب الياقات البيضاء . . ونحو احتقار
المعارف العملية . والعمل اليدوى .
وكانت المدارس التبشيرية تعمل من ناحية أخرى على إضعاف الروح
القومية والتماسك الاجتماعى .
ولم يكن الأفريقى فى حاجة إلى عقائد . . فعنده من هذه العقائد
الكثير . . وعنده رب رحيم غفور يهديه فى حياته .
وديانة الأفريقى ديانة رقيقة رحيمة ملائمة لحياته الشاقة . . فليس فيها
فكرة الجحيم . . ولا فكرة العذاب الأبدى فى جهنم . . ولا فكرة الخطيئة
الأولى .

وكانت التعاليم المسيحية بالنسبة له فى البداية . . شيئاً غير مفهوم .
لم يكن يفهم معنى لأن يبعث بعد الموت لبوضع فى جهنم . . لأنه أخطأ
ذات مرة على الأرض . . كان هذا يبلبل عقله . . وحينما كان القسيس
الكاثوليكي يواجهه بمصيره التعس إذا تزوج أكثر من زوجة واحدة . . كان
يقع فى صراع . . وحيرة لا آخر لها . .
فالأفريقى البدائى لم يكن يملك من الأسلحة غير . . النسل الوفير وفى
حربه ضد الفقر والجهل والمرض والتأخر والحيوانات المفترسة لم يكن له حول
ولا قوة سوى نسله .

وكان معنى أن يتزوج بواحدة . . ويتضاءل نسله . . أن ينقرض . . ويفنى
وهذا هو ما كان حادثاً بالفعل . . فقد كان فى طريقه إلى الانقراض .

وبدأ الأفريقى يهرب بعباداته وتقاليده إلى الغابات . . ويلوذ بالجبال . .
والأفريقى الذى نال حظاً من الثقافة كان يناقش القسيس . . ويسأله عن . .
يعقوب وداود . . وسائر الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى الإنجيل فى
إجلال وإكبار . . وكل منهم كان له جيش من الزوجات . .
وهم هناك يفضلون أسماء . . داود . . وسليمان . . ويعقوب . . لهذا
السبب .

وفشل المبشر فى اقتلاع عادة تعدد الزوجات لأنها كانت مرتبطة بشىء
أعمق من مجرد المتعة . . هو حفظ النوع .
كانت إملاء من الطبيعة والبيئة والظروف .
وبدأ المبشر يتبع أسلوباً آخر . هو أسلوب الخدمات . . فراح يتقرب إلى
هؤلاء البدائيين بالهدايا فيحمل إليهم الخرز والصابون . . ويقدم لهم وجبات
اللبن . . ويداوى أطفالهم وماشيئهم . . ويظهر مزروعاتهم من الحشرات .
وبدأت الكنيسة تثبت أقدامها كمركز للخدمات وسط الغابة .
ولكن برغم الإخاء والمحبة وتعاليم المسيح . . كان السود والبيض يصلون
فى كنائس منفصلة . وكانت هناك كنائس للسود وكنائس للبيض .
وفى جنوب أفريقيا . . كان اضطهاد اللون أشد بكثير . .
كانت المسيحية فى أفريقيا مظهرًا من مظاهر الدعاية . . ولم تكن تمت
إلى المسيحية الحقيقية بنسب . . كان الاستعمار يتخذ منها مبرراً ليفعل ما يشاء
باسم الدين .
والحقيقة أن هذه القبائل البدائية كانت تعيش فى إخاء وتعاون ومحبة
أكثر من المجتمعات التى عرفت الإنجيل .

وفى قبيلة الماو ماو كان الطفل ينشأ على تربية تعاونية خالصة . . الزراعة
يشارك فيها الجميع الزوجة والأولاد والبنات والأطفال . . جنى المحصول . .
إعداد الطعام . . طحن الحبوب . . صناعة المريسة . . الخروج للصيد
اللعب . . الرقص .

الاحتفالات الدينية . . كل ألوان النشاط تراولها الجماعة معاً . . حتى دية
القتيل والتعويض عن للجرائم تشارك الجماعة فى تأديتها عن القاتل متعاونة
متكاتفه . . حتى مهرور العرائس تشارك العائلات فى تديرها ودفعتها عن
العريس . .

الطهور يؤدى جماعياً .

الكوخ يبنه جميع الجيران تطوعاً بدون أجر .

الأرض تمنح للزراعة بدون مقابل من باب الصداقة والحب والثقة . .
الطفل يولد ويترى ليجد نفسه عضواً فى فريق . . يفرح . ويحزن ويبكى . .
ويضحك . . بروح الفريق . .

الأفراد ينادون بأسماء آبائهم . . ابن فلان . . بنت فلان . .

الأب هو المرئى والمعلم والقائد الروحى . . وهو يأخذ طفله من يده ليرتاد
معه الغابة ويشرح له على الطبيعة أحوال النبات والحيوان ويأخذه معه إلى
« الكاياما » . . محكمة القبيلة . . ليتدرب على مناقشة القانون . . ويأخذه
معه فى المحافل الدينية ليلقنه واجباته الدينية . .

التكوين الأخلاقى لكل فرد . . خال تماماً من الأنانية . . والفردية
والملكية المستغلة . . وعبودية الأجر . . التى يعانى منها مجتمع الغرب . .
وما أكثر ما كان الماو ماو يقرأ فى الإنجيل عن شرور لا يفهمها . .

وما أكثر ما كان القسيس يحذره عن رذائل لا علم له بها . . .
كان يحضه على الصيام . . . والامتناع عن الخمر . . . والإحسان إلى
الفقراء . . .

كيف يصوم ذلك الصائم الأبدى . . . إنه لا يكاد يأكل شيئاً . . . كان
يقول له . . . لا تكذب . . . لا تسرق . . .

من الذى يسرق . . . ؟ ! !

ومن الذى يرفع الأعلام الأجنبية فى كافة أرجاء البلاد . . . ويضع
المراسى على الشاطئ . . . ويحتكر خيرات البر . . . والبحر . . . والجو . . . ويضع
فى جيبه باسبورت إقامة فى بلد لا يملكه .

لو أن ذلك القسيس الطيب سأل نفسه مرة واحدة هذا السؤال
البسيط . . . لعرف حقيقة الدوافع التى أتت به إلى ذلك المكان . وحقيقة
الأغراض التى سخر من أجلها .

فلم يكن البشر خادعاً . . . وإنما كان مخدوعاً وكان يخدم خطة كبرى
لا يدرك عنها شيئاً .

فى وسط الصراع كان ذلك البدائى المهزوم المغلوب على أمره لا يجد من
يلوذ به سوى ماضيه وتقاليده . . . فيتمسك بها . . . ويقاوم كل جديد يقتحم
عليه حياته . . . كان يرفض الجديد الذى يضره . . . والجديد الذى ينفعه . . .
كان يفضل الحديد الرديء الذى يصنعه مواطنوه على الحديد المصقول
الذى يصنعه المستعمرون البيض . . .

وكان يقاوم الجرارات الميكانيكية التى تحرث الأرض . . . ويقف فى
طريقها معتقداً أنها تفسد الأرض بتقليبها . . .

تماماً. كما كنا نفعل زمان حيناً كنا نرفض السباد الكيماوى خوفاً من إتلاف
المحصول . .

حكايات يرويها الغربيون كدلالة على التأخر . . وهى ليست دلالة تأخر
بقدر ما هى دلالة حيوية وانفعال . . فهى ردود أفعال طبيعية من ضعيف
متأزم يرتاب فى كل ما يأتية من القوى . .

والماو ماو من القبائل القليلة التى احتفظت بحيويتها . . طوال محنة الاستعمار
ظلت محتفظة بتماسكها ووحدتها وقوتها . .

والسر فى هذا أنها أكثر من مجرد قبيلة . . أكثر من مجرد تجمع عددى
من أفراد بدائيين . . فهى حضارة وإن كانت لونا بدائيا من الحضارة . .
وهى كديانة . . وكأخلاق . . وكنظام . . وكطريقة حياة . . تمثل
مرحلة متفوقة .

وهذا وقفت على قدميها أمام حضارة عمرها عشرين قرناً . .
واستطاعت أن تمنحها شيئاً .

واستطاعت أن تواجه الظلم . . وأن تتكفل فى تنظيمات . . وتحارب
الاستعمار . . وترزّل حصونه . . وسجونه . . وترغمه على التسليم بمطالبها .
وهى معجزة لم تحققها الحراب . . والنبال . . وإنما هى معجزة حققها نظام .

نظام فيه مقومات حضارة .

وكلمة ماو ماو التى تجرى على الألسن كهمهمة بربرية لا تدل على حقيقة
هذه القبيلة العجيبة . . حيث كل عادة . . وكل عرف . . وكل تقليد من
تقاليدها غنى بإنسانيته . .

ولا غرابة فى أن تمنحنا هذه القبيلة زعيماً إنساناً مثل . . أومو كينياتا . .

السودان

السودان تيه شاسع . . مليون ميل مربع فيها كل صنوف النبات والحيوان
وكل ضروب الأجناس البشرية . وكل ألوان الطقس من جفاف شديد . .
إلى رطوبة . . إلى حر لافح . . إلى أمطار هادرة . إلى صقيع . .
الجنس الحامى والسامى والزنجى فى أخلاط وأمزجة وكوكتيل من كل
الدرجات . . سواد كالأبنوس . . سمرة نحاسية . . سمرة خميرية . . ألوان
قمحية فاتحة . . تقاطيع أوروبية دقيقة . . تقاطيع زنجية غليظة . . ملامح
عربية . . سمات مصرية . .

فى قبائل بنى عامر تجد ملامح الجنس الحامى فى صورته النقية . . الشعر
التموج والأنوف المستقيمة والبشرة الخمرية والقامة المعتدلة . . والجنس
الحامى هو الجنس الذى انحدرت منه الشعوب الفرعونية . . وأصله فى آسيا
والقوقاز . .

وفى قبائل الرشايدة والبقارة تجد ملامح الجنس السامى فى صورته
النقية . . الوجوه السمراء المستطيلة العربية والقامة الطويلة كالرمح .
وعلى خط الاستواء تجد الملامح الزنجية الصرفة . . الشعر الأجعد
والأنوف المفرطحة والشفاه الغليظة المقلوبة . .

وحاصل جميع كل هذه الصفات تجده في كل مكان نتيجة التزاوج المستمر على مدى الأجيال .

وكل شيء في السودان بالألف وبالمليون . . الثروة الحيوانية بند الماشية وحدها ٢١ مليون رأس . . الطيور الملونة أسراب من ملايين لم تجرؤ مصلحة إحصاء على عدّها بعد . . الأمطار كذا مليار أمتار مكعبة .

مديرية كردفان وحدها مساحتها مثل مساحة فرنسا . . وهي واحدة من عدة مديريات في السودان .

ولكن الشيء الوحيد القليل والنادر هو التعداد البشري .

كل السودان بمتاهاته الشاسعة تعداده ١٢ مليون وفي آخر إحصاء رسمي في سنة ١٩٦٠ عشرة ملايين ومائتين ألف بالضبط .

مديرية كردفان التي هي مساحة فرنسا تعدادها مليون وسبعمئة ألف في الوقت الذي تريد فيه فرنسا على أربعين مليوناً .

الخرطوم أكثر المدن ازدحاماً تعدادها نصف مليون أى أقل من تعداد

شبرا .

والنتيجة أن ثروات السودان كلها مازالت مكنوزة في التربة وفي الماء وفي الغابة . . بلا تشغيل . . لا توجد الأيدي الكافية لاستخراجها . . والأيدي القليلة الموجودة يشلها الحر اللافح وترهقها المسافات الطويلة . . بلا طرق . . وبلا مواصلات سريعة . .

ومع ذلك فالحكومة بالموارد البشرية القليلة وبالميزانية المحدودة صنعت الكثير . .

مشروع مثل مشروع الجزيرة . . روى مليون وثمانمئة ألف فدان وشغل .

٣١ ألف مزارع وأنتج أقطاناً ممتازة طويلة التيلة .
وتأميم المشروع فى سنة ١٩٥٠ حول اقتصاديات المنطقة إلى اقتصاديات
اشتراكية وحقق دفعاً ثورياً هائلاً . .
ومشروع مثل مشروع خشم القربة الذى يجرى العمل فيه الآن سوف
يروى مناطق أوسع . ويحقق تقدماً أكبر . .
وحينما دخلت الخرطوم . . لاحظت أكثر من شارع جديد تم تخطيطه .
والخرطوم مدينة من طراز فريد . . فهى تجمع خصائص الريف
وخصائص المدن . . فهى أشبه بالضواحي . . أشبه بالمعادي عندنا . .
شوارع واسعة هادئة . . وبيوت متناثرة متباعدة لا يزيد الواحد منها عن طابق
واحد ولا يوجد فى الخرطوم التناقض الحاد الذى يستفز الأعصاب الموجودة
فى نيروبي ودار السلام بين سرايات الإنجليز وأكواخ الزنوج . . فلا إنجلترا
هناك . . ولا زنوج . . ولا أكواخ . . ولا سرايات . . وإنما فيلات على
الأكثر . . والطبقة المتوسطة هى الأغلبية . . وسكان البلد قليلون . .
والشوارع تخلو من روادها بعد العاشرة مساء . . وتشعر أن المدينة نامت
. . وتمشى عدة كيلومترات على شاطئ النيل فى جو شاعرى ملهم ولا تعثر
على فتى وفتاة فى حالة انسجام . ولا تعثر على الأكثر إلا على شلل متناثرة
تشرب البيرة فى مشارب على الشاطئ وكلها من الجنس الحشن . .
شئ غير طبيعى . .
والنتيجة أن الشباب يبحث عن السلوى فى البيوت المرخصة . .
والسودانى وديع جداً ورقيق وعاطفى وهادئ وفى الأيام العشرة التى
عشنا فى الخرطوم لم أعر على خناقة واحدة .

واللهجة السودانية تشبه لهجة الصعيد عندنا . . لكنها أسرع وتنطق في
خطف . . ربما للتدفق العاطفي في طبيعة السوداني . .
وهذا الخطف السريع في مقاطع الألفاظ هو السبب في ظهور كلمات
سودانية خاصة مثل :

هسع : هذه الساعة .

ماخسانى : لا يخصمى .

ماكويس : مش كويس .

ما معقول : غير معقول .

بالله : والله .

جداد : دجاج .

كيفك : كيف حالك .

هنأى : الحاجة اللى هنا . .

الزعبور : الزوبعة الترابية .

وكل التعديلات التى دخلت على الكلمات هى تعديلات اختصار . .
خطف للمقاطع المتعددة في مقطع واحد . . فهى ليست لغة خاصة . . وإنما
هى اللغة العادية منطوقة بسرعة .

وسرعة الكلام عند السودانى لا تدل على عجلة . . لأن السودانى
بطبيعته غير متعجل . . ولا يوجد أكثر من الوقت فى الخرطوم . . وإنما
السرعة فى الكلام دلالة عاطفة .

وهذه السرعة تظهر مرة أخرى فى الموسيقى السودانية . . المقاطع الموسيقية
كلها سريعة نشطة . .

ولا يوجد في السودان غناء كلثومي ، ذلك الغناء المتمهل ذو المقاطع الطويلة البطيئة لا يوافق المزاج السوداني . . وأغنيات عبد الحليم وموسيقى عبد الوهاب تجد عندهم صدى أكثر .

والحر في الخرطوم شديد القسوة . . وبرغم وجودي في الخرطوم في الأيام المفروض أنها أيام شتوية باردة . . فقد كانت الشمس تضرب رأسي بعنف كأنها تهوى عليها بقدم . . وكنت أشعر بعد دقائق من المشي في الشمس أن رأسي ورمت تمامًا . . وأن عظام رأسي تؤلمني . . ولم يكن شرب الماء يسعف . . فالجفاف شديد . . والماء يتبخر من اللسان والجلد بسرعة . . والصوت يبح ويصبح مشروخاً لكثرة ما يتبخر من اللعاب . .

ومقاس الأكواب في الخرطوم ثلاثة أضعاف مقاس الأكواب عندنا وزجاجة الكوكاكولا مقاسها دوبرل لهذا السبب . .

والزير يثلج الماء مثل الثلاجة . . لأن الماء يتبخر من على سطحه بسرعة هائلة وبالتالي ينخفض درجة حرارته بسرعة أيضاً .

والجلد في الأيام الحارة يحف ويتشقق من كثرة الجفاف . . ويحتاج إلى الكريم والمطريات باستمرار . .

والفرق بين الشمس والظل أكثر من عشر درجات . . لدرجة أن مجرد انتقالك نصف متر إلى الظل كأنك سافرت إسكندرية . .

والفرق بين معدلات الحرارة في النهار والليل شاسع بدرجة أنك تلبس قميص على اللحم بالنهار . . وبلوفر صوف ثقيل على بدلة كاملة بالليل . .

والجوع مع هذا محتمل فيما عدا مايو ويونيو ويوليو .

والذين جربوا حر أسبوط يمكنهم أن يتصوروا جو الخرطوم . . فالاثنان
جوهما متشابه .

والحر والجفاف يؤديان إلى الاسترخاء الشديد والكسل . .
وتكييف الهواء في مثل هذه الظروف يصبح كعملية الإسعاف والتنفس
الصناعي لطريح يعالئ الاختناق والاغماء . .

والمنظر الذى يشاهد في أكثر من مكان في الخرطوم هو موائد البيرة
والشلل التى تلتف حولها في دوائر وتكرع الزجاجاة بعد الزجاجاة .
ويبدو أن هذه العادة هى بديل طبيعى لعدم وجود الاختلاط ولقلة
النواذى والسينمات وأماكن السهر ولشدة الجفاف .

وساكن الخرطوم في المتوسط أكثر ثقافة من ساكن القاهرة . . وأكثر
عكوفاً على القراءة والاطلاع . . وأكثر جدية في قراءته . .
والظاهر أن الشارع عندنا في القاهرة مسلى لدرجة أن الواحد منا يحتاج
إلى كثير من الضغط على نفسه ليغلق على روحه الباب ويفتح كتاباً . . وهو
إذا استطاع أن يقاوم إغراء الشارع لن يستطيع مقاومة إغراء التليفزيون . .
أو الوقوف في الشباك . . والنتيجة أن ينتهى اليوم بدون محصول ثقافى
يذكر .

والترية على القراءة ليست في حياتنا كما في حياة السودانى .
ونحن نعوض هذا النقص في الاطلاع بالتهريج والنكتة الذكية .
والسودانى لا يهرج كالمصرى . . بل هو على العكس مهذب جداً .
وإذا سألت أحد السودانين خدمة تسابق عشرة إلى تلبيتك . . ولو أننى
بدأت أروى أسماء الذين طوقونى بحببتهم للمأت الأعمدة الباقية بالأسماء . .

ولكنت بعد ذلك ظالماً للمجهولين بلا أسماء الكثيرين بلا عدد على طول الطريق الذين قدموا إلى المحبة والمعونة بلا معرفة . .

وفي أم درمان كما في الموسيقى عندنا . . تلتقى بهذه الصفات الشعبية أكثر وأكثر كما تلتقى بالأطعمة الشعبية الأصيلة فتشرب « الأبرية » . . و« الحلومر » . . وتأكل « الكسرة والملاح » . . وتمشى في شوارع مزدحمة بالصناعات المحلية كسوق العاج .

وقد عشت أيامي العشرة في الخرطوم أتعرف على الحياة الاجتماعية فيها . . وأبحث في المكتبات عن كتب في الجنوب . . وفي القبائل الاستوائية تلك البقاع التي خلفتها ورأى في تنجانيقا وكينيا لتعود لتشدني مرة أخرى إلى رحالها في السودان . .

وكنت أتأهب إلى السفر في شوق . .

* * *

وحينما ركبت الباخرة النيلية نازلاً من الخرطوم إلى كوستي إلى غابات الجنوب وانقطعت صلتى مرة أخرى بالمدينة . . شعرت أنني عدت إلى الحياة التي عشقتها .

وكانت تمر أيام كاملة لا تقع عيني على إنسان . لا شيء سوى مسرح تعج فيه التماسيح . . وتتقاطر قطعان سيد قشطة لتسد طريق الباخرة . . وتسبح نباتات الهياست في جزائر عائمة يحرفها التيار ويدفعها بشدة نحو الشمال .

وعلى الشاطئ كانت تُرى سهول على مدى البصر مملوءة بنباتات البردي وأعشاب السفانا وتمرح فيها الفيلة في أسراب . .

وفى الجو ترقزق العصافير الملونة وتغنى البلابل والكروانات . . ويطن
البعوض . . وفى الليل تلمع حشرات الحباحب المضيئة . . وتتألق لتجتذب
البعوض ثم تنقض عليه وتأكله .

وكانت الغرفة على يمينى بها سائح ألمانى والغرفة على يسارى بها سائح
أمريكى . . والغرفة فوقى بها عالم هولندى وعلى الدك مجموع من زنوج
الشيوك . . والدنكا . . والنوير . .

وفى الممرات الضيقة كنت أسمع أكثر من عشر لهجات . . لا يستطيع
أى منا أن يفهم الآخر .

ووجدت نفسى أطلق ذقنى . . وأمشى بلحيتى على سطح المركب دون
أن أشعر بغرابة . . تماماً كما يسير الزنوج عراة على طبيعتهم حولى . .
وكلما توغلت المركب جنوباً كلما تخففت من قطعة من ثيابى . . حتى
أصبحت فى النهاية أسير عارياً بالكالسون . .

وكنت أتذكر الخرطوم . . أحياناً . . من هذا البعد الشاسع فتبدو لى
بلداً غريباً فى شمالها القاهرة الباريسية بالجابونيز والديكولتيه والبلوزات .
بحجم الكف وفى جنوبها زنوج بور والملكال بورق التوت وأحياناً عرايا بدون
ورقة التوت وهى فى الوسط تخنق نفسها بالثوب وتغطى مواطئ الفتنة حتى
المنكبين وتقيم سداً منيعاً بين نساءها ورجالها . . لا متنفس فيه لاختلاط . .
أو عاطفة أو علاقة . . إلا برخصة . . وبطريقة غير مشروعة .

ولم أكن أفهم لهذا التشدد معنى . .

كان يبدو لى تشدداً أقرب إلى التشنج منه إلى العفة .

وفى الناحية الأخرى كانت هناك قلة النسل التى تهدد كل هذه الثروات

بالبوار . . . تعداد من عشرة مليون فى متاهات شاسعة . . . الثمار تقع من على أشجارها وتتعضف دون أن تجد من يأكلها . . . والأرض تنبت ما تشاء من عشب شيطانى دون أن تجد من يزرعها . . . والمرأة فى الخرطوم حبيسة البيت خوفاً من أن تحمل فى الحرام . . .
أى حرام . . .

إن هذا العطل الذى تعيش فيه هو الحرام . . .
إن الثمار تصرخ منادية على من يقطنها . . .
والأرض الحلاء تصرخ منادية على من يعمرها ، وكل شبر فراغ يتضرع إلى كل أنثى لكى تحمل وتلد .

والخطة الاجتماعية كانت يجب أن تشجع الرغبة الطبيعية بين الرجل والمرأة وكقوة دافعة للنسل وتمهد لها ظروف الاختلاط الطبيعية لتؤتى أقصى ثمارها بالتزواج .

إن المرأة فى قبيلة الجيكويو التى تذهب بفطرتها السليمة إلى زوجها بعد سنة من الزواج لتحرضه على الزواج بأخرى ليزداد عدد الأولاد فى العائلة منطقها أكثر سلامة من كل هذا التعقيد الذى جلبه التمدن على الحياة الاجتماعية فى الشمال . . .

إن حياة الغابة البسيطة المباشرة تبدو لى مفهومة أكثر . . .
إن هذه الإرادة الأنثوية التى تواجه بها المرأة عوامل الانقراض والفناء التى تعمل مناجلها فى ألوف الزوج حصداً . . . وتبقى على القبيلة برغم كل شىء . . . هى الفضيلة ذاتها .

ولو أن بنت الجنوب عاشت فى التزمت الذى تعيش فيه بنت الشمال

لأنقرض جنسها كله وامحى من الخريطة . .
إنه إلهام الطبيعة . . يضع ناموس الأخلاق ليكون ناموس بقاء . . قبل
أن يكون مجموعة تعاليم نظرية .
الطبيعة تنادى أهل الشمال ليتخففوا قليلاً .
بعض الحرية . وبعض البهجة . . ومزيد من الاختلاط . ومزيد من
الزواج . .

* * *

مضت أيام اثنتا عشر منذ أقلت الباخرة من كوستى . . ومازالت
الباخرة تسير فى منعطفات لانهاية .
ومشيت بأصبعى على الخريطة . . على خط السير الطويل . .
الخرطوم . . كوستى . الملكال . . بور . . جوبا . . ياي . . مريدى . .
يامبيو . . أنزارا .

ووضعت دائرة حول يامبيو .
هناك قلب منطقة « الزاندى » .
و « الزاندى » هى القبيلة التى أطلق عليها الجغرافيون العرب نيام نيام . .
وأغمضت عيني . .
إن قلبى هناك . . فى أعماق الغابة . .

النيام نيام

ماترويه الكتب عن قبيلة الزاندى « نيام . . نيام » غير الحقيقة التى رأيتها على الطبيعة لأن معظم هذه الكتب قديمة أحدثها طبع منذ ثلاثين عاماً (دراسة سليجمان عن قبائل السودان ١٩٣٢) ومع ذلك . . فهذه الدراسة هامة . . لأنها تعطى صورة دقيقة للماضى . .

والزاندى قبيلة كبيرة تزيد على المليون . . أفرادها متشرون فى جنوب السودان فى منطقة مريدى . . يامبو . . إنزارا . . وفى الكونغو البلجيكية . . وفى السودان الفرنسية . . وفى أوغندا . .

والحدود الجغرافية بين هذه الدول لا تشكل حدوداً بالنسبة للزاندى . . فالعائلة الواحدة من الزاندى تجد فيها الأب بالسودان والابن بالكونغو والحال بالسودان الفرنسى . .

وقبيلة الزاندى قبيلة محاربة غازية أفرادها أقوياء أشداء . . على ذكاء نسى أعلى من بقية القبائل .

والذكاء قد خلف آثاره فى تاريخ هذه القبيلة العجيب . . فقد انفردت بين جميع القبائل بنظام ارستقراطى للحكم . . يتولى فيه الصفوة « الأفونجارا » حكم الأغلبية . .

وقد خصت طبقة الأفوننجارا نفسها بامتيازات عديدة . . فهي تتوارث الحكم بين أفرادها . . وهي تعنى نفسها من القيود المتبعة فى الزواج فلا تتخرج من زواج المحارم . . الأب يتزوج ابنته . . والابن يتزوج أمه . . والأخ يتزوج أخته . . وإذا راق للأفوننجارا أى عدد من نساء الشعب فإنه يتزوج به . .

والملك بادوى آخر ملوك الأفوننجارا كانت له حاشية من الحرم تمتد أكوأخها مسافة سبعة كيلومترات . .

وفى سبيل حماية هذا الجيش الهائل من الحرم كان الملك يعاقب بالخصى وتقطيع الأطراف والإعدام كل من يتجراً من أفراد الشعب على إغواء حريمه . .

وكانت نتيجة هذا الحصار المضروب حول الحرم . . وعدم قدرة الملك على إشباع رغبات هذه الحاشية النسوية . . أن نشأت عادة السحاق والشذوذ الجنسى بين النساء . . واتخذت القبيلة التى استأثر الملوك بأكثر نسائها ، من الصبيان والولدان زوجات . .

وظلت علاقة الرجال بالأولاد مباحة ومشروعة حتى ألغتها الحكومات المحلية . .

والزاندى يؤمنون بإله يسمونه « مبولى » وكل شىء فى الدنيا يتحرك بإرادة « مبولى » . . وهو يسلط الصواعق على الأشرار من البشر . . ويكافئ الصالحين منهم . .

والزاندى لهم طقوس خاصة حينما يصلون « لمبولى » . . فهم يملثون أشداقهم بالماء ثم ينفثون ما بها من ماء على الأرض وهم يغمغمون .

« مبولى » إلهنا . . إننا لم نسرق من أحد . . ولم نأخذ نساء جيراننا . .
ولم نفعل شيئاً يغضبك . . « مبولى » إذا كنت ترغب فى موتنا فليكن موتنا فى
يوم آخر غير هذا اليوم .

وهم مثل سائر القبائل يؤمنون بأرواح الموتى . . « أتورو » . . وقدرتها
على إنقاذهم ومعونتهم . . ويقدمون لها القرابين من الحبوب والفواكه
والدجاج . .

ويعتقد الزاندى أنه عند إتصال الأب بالأم يتحد « ييزيمو » من الأب
مع « ييزيمو » من الأم . ويتكون من العنصرين الطفل الوليد . . وحينما يكبر
الطفل ثم يحىء دوره ويموت فإن « ييزيمو » تتحول إلى « أتورو » . .
وتخرج الروح « أتورو » لتسكن الجبال وأعالى الجداول . . ولا تترك هذه
القمم العالية إلا لتذهب فى زيارة الأقارب بين حين وآخر . . أما الجثة
فتتعفن جميعها فيما عدا اليد اليمنى للميت فإنها تتحول إلى الحيوان المقدس
« الطوطم » الذى انحدرت منه العائلة . . وبهذا فإنها تصبح فهداً أو أسداً
أو تمساحاً حسب نوع الحيوان المقدس .

وحينما يموت الميت فإنه يغسل ويلف فى ثوب من القماش وتغنى النسوة
أغاني الموت . . وتحفر حفرة يوضع فيها الجسد على جنبه الأيمن مع ثنى
رجليه وذراعيه وتوضع معه أسلحته . .
وفى أثناء حمله إلى مقبره الأخير يكشف الحمالون وجهه لتناديه زوجته
باسمه . . وتودعه بنظرة أخيرة . .

ويعتقد الزاندى أن روح الميت لا تهدأ إلا إذا انتقم أهله من قاتله . . وكل
وفاة عندهم ليست وفاة طبيعية . وإنما سحر قام به « المانجو » الساحر الأسود .

وهم لهذا يأخذون عينة من ثوب الميت وقصاصة من أظافره وخصلة من شعره . . . ومفصل من إصبعه الخنصر ويقلمونها لساحر « الباجبودوما » . . .
فيأخذها الساحر ويحرقها ويضع رمادها في صفارة سحرية . يصفر بها وهو يتلو اللعنات على القاتل وينفخ بها في الجهات الأربع التي تهب منها الريح . . .

ثم يدفن الصفارة في جذع شجرة ومعها قليل من عقار « الباجبودوما » السحري ثم يعطى صفارة أخرى إلى أقرب أقرباء الميت لينفخ فيها كل يوم وهو يلعن القاتل ليعجل بالانتقام منه .

ويلى ذلك فترة انتظار قلقة . . . يصفر فيها قريب الميت كل يوم ويلعن القاتل ويتنظر موته بين لحظة وأخرى . . .

حتى إذا سمع بوفاة في القرية سارع إلى العراف يسأله عن المتوفى وهل يكون هو القاتل . . .

ويجري العراف استخاراته . . . ويؤكد له أن المتوفى هو القاتل . . . وأن « الباجبودوما » أحدث أثره . . . والانتقام نفذ . . .

وساعتها فقط يفك أهل الميت الحداد ويقيمون وليمة فاخرة يوزعون فيها الخمر على أقارب الميت وأصدقائه . . .

ويقوم أكبر الموجودين ليلقى كلمة . . . ويتناول فرعاً من فروع شجرة البومبيلي المقدسة يغمسه في الخمر ثم يرش به على قبر الميت وهو يتمم .

- إيه ياروح أمي العزيزة . . . لماذا أنت غير راضية عني . . . ولماذا لا ترضى عني سائر الأرواح . . . لقد أدبت واجبي كاملاً . . . وقدمت الهدايا من الحراب على روحك . . . وصنعت لك مدفنًا مريحاً غطيته بالحصى . . . وها

أنا ذا مونجورو ابنك . . أشرب الخمر وأسكبها على ثراك . . وأقف لتحيتك
وفي يدي فروع البومبيلي المقدسة . . إيه ياروح أمي . . إنما دموعنا هي هذه
الخمر . . كوني راضية عنا . . وجفني سحب الأمطار . . حتى نستطيع أن
نرقص على الأرض الجافة ونحتفل بك . .

وفي نهاية كلمته يجمع جرعة من قصعة الخمر ثم يدلق الباقي على المقبرة
لتشرب معه الأرواح . . ثم يقوم من بعده آخر ليلقى كلمة ثانية . . وثالثة .
ثم يتقدم إخوة الميت وهم يلوحون بأعواد البومبيلي ويسكبون الخمر على
القبر . .

ثم يلقي كل واحد بحصاة فوق القبر حتى ترتفع كومة من الحصى فوق
الحفرة . . ويعود الكل إلى بيوتهم .

وفي حالة موت الحاكم فإنه يدفن سرًا . . وفي الماضي كانت تدفن معه
أحب زوجاته وتكسر رجلاها وتوضع جثة الميت على رجلها المكسورتين . .
ويملاً القبر بكافة أنواع الأسلحة ثم يمال عليه التراب .

والزاندي يعتقدون أن كل مصيبة تحدث لهم سببها السحر « مانجو » .
حينما تموت الماشية فالسبب هو المانجو . . حينما يمرض رب البيت فالسبب هو
المانجو . . حينما تلتف الزراعة فالسبب المانجو . . حينما تتعسر الولادة مانجو . .
حينما لا يكون الصيد موفقًا . . مانجو . . وكل وفاة عندهم ليست وفاة
طبيعية وإنما مانجو .

وكانوا في الماضي يعاقبون المانجو بالإعدام .

كانوا يذهبون لاستشارة العراف . . فيجلب العراف دجاجة يسقيها من
مادة البنجو المخدرة . . ثم يقف على رأسها يتلو تعاويذه وهو يصيح بين لحظة

وأخرى . . إذا كان فلان ابن فلان هو المانجو فلتسقطى ميتة .
فإذا سقطت ميتة . . فإن موتها يكون علامة صدق الاتهام . ويذهب
الاثنان إلى الحاكم ويعيدا أمامه الاختبار . فإذا جاءت النتيجة مؤكدة
للاتهام . . فإن الشاكي يصبح فى حل من قتل الساحر . . ولكن الخلاف
كان فى العادة ينتهى بدفع غرامة عشرين حربة لأهل الميت .
أما إذا كان المجنى عليه من طبقة الأفونجارا فإنهم كانوا يجلبون المتهم
بشخصه للعراف ليسقيه شراب البنجو بدلاً من أن يسقيه للدجاجة . وكان
يطلب من المتهم وهو فى سكرة المخدر أن يجمع عدداً من أعواد البوص من
على الأرض . . فى حين تدق الطبول من حوله طول الوقت . فإذا ترنح
وسقط على الأرض فإن هذا يكون دلالة على أنه المانجو . . وكان يقتل
لساعته .

ومثل هذه الأحكام والطقوس لم تعد تنفذ الآن بعد تدخل السلطات
المدينة . . وأصبح يكتفى بالرد على السحر بسحر مثله (الباجبودوما) .
وهناك فئة أخرى من المطبيين السحرة اسمهم « الأبتزا » يعالجون المرضى
بالتدليك ويداوون الجسد بالعقاقير والأعشاب . . ويقضون نهارهم وليلهم
فى الكهوف يسحقون الأعشاب ويطهونها بالزيت والبذور ويتلون عليها
التعاويد .

ونظراً لمطاردة الحكومات المدينة المختلفة لهذه الفئات من السحرة
والمشعوذين . . فإنهم أصبحوا يتجمعون الآن فى جمعيات سرية .
وأكبر هذه الجمعيات جمعية « مانى » وأعضاؤها يزيدون على الألوف
وتنظيمها يشبه تنظيم الجمعيات الماسونية . . فأعضاؤها لهم إشارات خاصة

سرية للتحية والسلام . . وهم يجتمعون في محافل . . وأسرار الجمعية العليا لا يعرفها إلا « الأساتذة » رؤساء الفروع والشعب المختلفة .
وهناك إقبال شديد على هذه الجمعية في الكونغو نظراً للضغط الشديد الذى يلقاه الوطنيون من الحكومة البلجيكية .

* * *

والانحلال الجنسى والعائلى بين طبقة « الأفونجارا » لا يقابله انحلال مماثل بين بقية أفراد الزاندى .

ونظام العائلة فى العادة يخضع لتقاليد صارمة . . فالأخ إذا رأى أخته عارية وهى تستحم بدون الورقة التى تضعها على عورتها فإنه يقدم لها هدية تعوضها عن حياتها الذى خدشه . . والأخوات الأولاد والبنات ينامون فى أكواخ منفصلة .

والأخ الأكبر يقوم مقام الأب فى رعاية الأولاد . . وهو فى العادة يقوم بدور الأب الروحى فى كل المناسبات الدينية . . وهو يتقاضى النصيب الأكبر من المهر الذى يدفع لأخته .

ورباط الدم بين الإخوة عامل هام من عوامل التعاطف بينهم . . وأحياناً يلجأ أفراد القبيلة إلى توثيق صداقاتهم بخلق رابطة دم عن طريق مراسيم خاصة . . فيجلس كل اثنين منهم الواحد أمام الآخر ثم يقوم أحدهما بجرح ذراعه ويغمس فى الجرح فرعاً من فروع شجرة البانجا . ثم يتناوله لزميله . . فيغمسه هذا فى الملح ثم يمصه ويمضغه فى حين يقتل الآخر حبلاً من ألياف « الداكوا » ويمضى يقتله وطرف منه معقود فى شعر صديقه وهو يتمم مخاطباً دمه الذى أصبح فى معدة صديقه . . وبهذا يتم رباط الدم بين

الاثنين . . ويصبح عهداً .

ويقضى رباط الدم الذى ينشأ بينهما أن يتعاونوا فى شر الحياة وخيرها .
وإذا خان أحدهما العهد فإن اللعنة تحل عليه ويموت .

والخطوبة فى الزاندى تبدأ منذ الميلاد . . حينما تولد الطفلة . . يتسابق
أولاد القرية إلى خطبتها . . ويقدم كل منهم باقة من فروع السيسيلي إلى
الأم . . فإذا لم يعجب الأم الخطيب فإنها تكتس فروع السيسيلي خارج
الكوخ . . وتنتظر عرضاً آخر يعجبها . . فإذا أعجبها الخطيب فإن عليه أن
يسارع بتقديم شبكة للطفلة عبارة عن إسورة من الخرز . . ومنذ تلك اللحظة
عليه أن يضع نفسه فى خدمة أهل العروس فيعمل فى حقولهم ويفلح لهم
الأرض ويروىها وعليه أن يتقدم بهدية من وقت لآخر . . حتى إذا بلغت
العروس عامها السادس ذهب يستشير العراف ويسأله . . هل يمضى فى هذا
الزواج . . أم ينصرف عنه . . فإذا أشار عليه العراف بالمضى . . فإنه يذهب
إلى بيت العروس ومعه هدية ثلاث حراب يعطيها لوالد عروسه كقسط أول
من المهر . . وكلما تقدمت الطفلة فى العمر أخذتها أمها إلى أهل العريس
حيث تبقى هناك مدداً متفاوتة أقصاها شهر تتعلم فيها فنون الطهى وخدمة
البيت على يد حماة . . وفى العادة تأخذ أم العروس معها هدايا . . من
الحبوب والفواكه والدجاج . . وفى هذه الزيارات ينفرد الخطيب بعروسه
وينام معها ويغازلها . . ولكن لا يدخل بها . .

وحينما تبلغ أقساط المهر المدفوعة عشر حراب . . تكون العروس فى
العادة قد بلغت السادسة عشرة . . فتنقل إلى بيت زوجها لتسلم مقاليد بيتها
حيث يقام لها كوخها الخاص ويجهز لها موقدها من قوالب الحجارة ويوضع

فوقه إناء الطهى . .

وتستمر الحياة الزوجية . . ويستمر الزوج فى دفع أقساط المهر من الحراب . . وتتوقف مواظبته فى الدفع على نشاط زوجته فى الطهى وعلى حسن خدمتها وأخلاقها . . وهو فى العادة يتوقف عن الدفع ويطلقها إذا كانت عقيماً . . ويسترد المهر الذى دفعه . . وإذا كانت كل خلفتها من الذكور فإنه يسترد نصف المهر .

وإذا ماتت دون أن تنجب فعلى أهلها أن يردوا المهر . . وفى إمكان العريس أن يتزوج بدون مهر وذلك بأن يقدم أخته لأهل العروس فى مقابل العروس التى أخذها . .

وحيثما يموت الزوج فإن زوجته تصبح من حق أخيه . . أو أولاده من أى زوجة أخرى فتنتقل إلى فراش الأخ . . أو الابن . .

والتقاليد تحمى العلاقة الزوجية عند شعوب الزاندى . . فالاتصال الجنسى قبل الزواج نادر لأن الخطوبة والعلاقة الزوجية تبدأ فى وقت مبكر جداً . . والحيانة الزوجية عقوبتها صارمة وحشية . . فالزوجة كانت تجلد وتشرط بالسكاكين . . والعشيق تقطع يديه وأذنه وشفته العليا وخصيته . .

والحامل فى الحرام تلد فى الغابة ولا تولدها الداية . .

وأمثال هذه العقوبات منعتها الحكومات المحلية الآن . .

ومن الأمور العادية الآن أن تهرب الزوجة مع حبیبها ويكتفى الزوج بالحصول على الأولاد . . واسترداد المهر . .

والطهور لم يكن متبعاً فى الزاندى . . ولكنه الآن عادة متبعة . . وهم يطاهرون الأولاد بين سن التاسعة  والتاسعة . .

والزاندى كانت تعتمد فى حياتها على الصيد . . وعلى السطو على القبائل الأخرى وإخضاعها .

وكانت العادة فى أثناء الحروب أن تأكل اللحوم البشرية . . لكثرة القتل الذين يتساقطون فى الميدان . .

لكن هذه العادة بطلت منذ أكثر من مائة عام . .

وأصبح الزاندى يعتمدون على الزراعة فى معاشهم . .

ولم ينجح الزاندى فى أن يكونوا رعاة . . بسبب ذبابة تسمى تسي . .

ومرض النوم الذى كان يقضى على الماشية وعلى الرعاة أولا بأول .

لكن التاريخ الطويل من الغزوات والحروب . . كانت نتيجة انتشار

لغة الزاندى . . على لسان عدد كبير من القبائل .

وهى لغة مفرداتها قليلة وسهلة .

والأب فى هذه اللغة اسمه بوبا . . والأم نينا . . والجددة تيتا . .

وهى ألفاظ مألوفة لآذاننا . .

ومن الأشياء التى خلفها الاستعمار الإنجليزى عدد من القواميس

والدراسات الوافية لهذه اللغة . . وقد ظن الإنجليز أنهم بدراستهم للزاندى

سوف يستطيعون النفاذ إلى عدد كبير من القبائل الأخرى . . عن طريق اللغة

المشتركة .

وكعادة الاستعمار وضع فى مقدمة جيوشه . . مدفعية من المبشرين . .

وكتائب كاملة من الإرساليات . . تعلم الإنجيل بلغة الزاندى . . وتعلم معه

الأشياء الأخرى التى يريدونها للسيادة الإنجليز . .

ومن صراع المذاهب . . فى الغابة .

ومن صدام الحياة والموت بين المستعمرين والوطنيين . .
ومن خليط الحضارة الجديدة الواقدة . . والبداءة الأولى . . نشأ من
النيام نيام . . شىء جديد . . غير النيام نيام . . وغير الزاندى . . الذى فى
الكتب . . هو الواقع الجديد الموجود حالياً .
وحكايته طويلة . .

كان الزاندى يتبادلون فيما بينهم عملة بدائية . . هى الحديد . كانوا
يستخرجون الحديد ويستخلصونه من خاماته ويصهرونه ويشكلونه فى أسلحة
مختلفة . . وكانت الصعوبات البالغة التى يعانونها فى الحصول عليه تجعل منه
شيئاً نادراً . . غالباً مثل الذهب .

ثم جاء الاستعمار . . وغمر الإنجليز الأسواق بالمصنوعات الحديدية . .
عربات من الحديد وقضبان من الحديد . . ومواسير من الحديد . . وأسلاك
من حديد . . ومعدات هائلة كلها حديد فى حديد . .

وأصبح الحديد خردة . . ملقاة على الأرض فى كل مكان .
وكانت نتيجة هذا التضخم الهائل فى العملة الحديدية أن هبط سعرها
للتراب . . ثم أفلست تماماً . وبالتالى أفلست الطبقات الحاكمة
« الأفونجارا » التى كانت تقنيتها .

ثم حطم الاستعمار البقية الباقية من هذه الطبقة بتحطيم امتيازاتها . .
فأصدرت السلطات فى عام ١٩١٥ وثيقة المرأة التى حرمت تحريمها باتاً
التزاوج الداخلى بين الأخوات فى طبقة « الأفونجارا » وحرمت تبادل
الزوجات . . وتوريث الزوجة لأخ الزوج . . وزواج الطفلة .
وأصدرت قوانين أخرى بعدم قتل الزوجة التى تخون زوجها وبمنع قطع

أذن الزانى أو خصيته أو أطرافه كما كان متبعاً .

وبهذا فقدت الطبقة الحاكمة سلطاتها المادية وسلطاتها المعنوية فى وقت واحد . . . وانهارت من أساسها .

وسادت مرحلة من التسامح الجنسى أدت إلى الانحلال وانتشار الأمراض التناسلية . . . وأصبحت معظم القضايا التى تعرض على « الكاليكو » هى قضايا خيانات زوجية . ويسمونهم قضايا « كسر البيت » .

وانخفضت المواليد بشكل ذريع . . . وأصبحت رؤية الأطفال ظاهرة نادرة . . . نتيجة الأمراض التى انتشرت بدون رعاية طبية . . . ونتيجة الانهيار الكامل والفجائى فى القيم المادية والمعنوية ونتيجة التعب . . . واليأس من كل شىء .

وفى السنوات التى أعقبت تلك الفترة . . . فى أثناء الحكم السودانى المحلى . كانت القضية التى تشغل البال . . . هى تحسين حال هذه الجماعات البدائية التى أشرفت على الانقراض . وكان الأمر متروكاً فى البداية للمتحمسين . . . والمبشرين بالمسيحية . والمبشرين بالإسلام . . . الذين ظنوا أن الحل هو الإصلاح الدينى .

وللحقيقة والتاريخ . . . لم تفعل محاولات الاثنين شيئاً يذكر بالنسبة لرفع مستوى هذه القبائل . . . وانتشالها حضارياً .

والذى حدث أن المبشرين المسيحيين كانوا أدوات طيعة فى يد المستعمرين . . . ولم يبشروا بالحبة بقدر ما بشروا بالكراهية وبنوا الفرقة والانفصال بين جنوب السودان وشماله . . .

وكانت خطة الاستعمار هي ضم جنوب السودان إلى أوغندا وكينيا وتنجانيقا . . إلى العزبة . . والأبعدية التي يمرحون في خيالاتها . .

وكانت آخر محاولة من هذا النوع هي التي قام بها القس سترانينو الذي ذهب إلى الفاتيكان وتقدم بشكوى إلى البابا . . وبشكوى مماثلة إلى الأمم المتحدة مطالباً بفصل جنوب السودان عن شماله بحجة الاضطهاد الديني . وكانت ثمرة هذا التبشير هي المذابح التي حدثت في الجنوب منذ سنوات وراح ضحيتها الكثير من أبناء السودان .

وللحقيقة والتاريخ . . لم يفعل المبشر الإسلامى شيئاً يذكر . . وكان هم الشيخ الذي يبعث إلى هذه المجاهل الجنوبية . . أن يسأل عن مرتبه . . ويطمئن أولاً على تسهيلات السكن والأكل والشرب والتحويش التي ستوفر له . وأهم من هذا . لم تكن المشكلة التي تعيش فيها هذه القبائل مشكلة دينية فقط وإنما كانت أكبر بكثير . .

كانت هذه القبائل تعيش في حالة انفصال تاريخي كامل . وكان لابد أن تتحقق ظروف تاريخية متقدمة لتقوم بينها حضارة متقدمة .

وكانت الخطة هذه المرة هي إحداث إنقلاب اقتصادي في المنطقة وقلب وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج للوصول إلى تغيير المنطقة حضارياً . . وتحويلها من حضارة غابة إلى حضارة مدينة . .

كان التبشير المطلوب هو تبشير اقتصادي وديني معاً .

* * *

وقامت فكرة المشروع الاقتصادي المعروف « بمشروع الزاندي » على

زراعة محاصيل نقدية مثل القطن والسمسم وقصب السكر . . وتصنيع هذه المحصولات بإنشاء محالج ومناسج ومعاصر . . وصناعة النسيج والزيوت والصابون والسكر . . ثم تسويق هذه المصنوعات بإقامة متاجر وأسواق محلية وتصدير الفائض إلى كافة أرجاء السودان .

وأشرفت الحكومة على المشروع وقدمت المعونة الزراعية والخدمات الصحية وأنشأت مدينة صناعية كاملة في « أنزارا » ضمت المناسج والمحالج ومعاصر الزيوت ومناشير الخشب . . ومدت الخطوط التليفونية من أنزارا إلى ميناء جوبا . .

وبدأ تنفيذ المشروع منذ عشرين سنة . . وصادف عقبات هائلة . .

* * *

وكانت أول عقبة . . هي مشكلة الإسكان .
والزائدى لا يعرفون في سكناتهم نظام البلدة .
كل أسرة تسكن وحدها . وبين كل أسرة والثانية كيلومتر من الأرض الفضاء أو أكثر . . والأرض التي تحيط بالأسرة هي ملكها عرفاً بما فيها من مزروعات وحيوانات للصيد وأسماك « وانقونقو » .
والأنقونقو حشرات مثل النحل يصطادها الزائدى ويأكلونها مشوية وأحياناً نيئة . . ويستخرجون منها نوعاً من الزيت . .
والأسرة تغير سكنها في العادة بعد انتهاء موسم الزراعة فتنتقل إلى مكان آخر وتنتهى بذلك ملكيتها لكل الأراضى التي كانت تزرعها وتصبح من حق أى أسرة أخرى تسكن مكانها . .

ولهذا السبب تعتبر قبائل الزائدى قبائل رحل ، بالرغم من اعتمادها على

الزراعة . . . وتعتبر الملكية بمعناها الرأسمالى غير معروفة بينها . . .
والملكية فى هذه القبائل هى ملكية عمل . . . « الأرض لمن يفلحها »
ولست ملكية مخصصة « الأرض لمن يملكها » .
ونتيجة لهذا التخلخل السكنى أصبح من الصعب توفير الخدمات المدنية
لهذه القبائل لأنها تسكن متفرقة متباعدة فى أسر مبعثرة . . . وعلى من يريد أن
يوفر لها خدمة أن يمد كل أسرة بطبيب خاص وإجزخانة ومعاون زراعى
وطلمبة مياه ووابور نور . . . وهذا مستحيل .
وكان لابد أن تبدأ الحكومة من البداية . . . أن تجمع هذه الأسرات
المتباعدة فى قرى . . . ثم تركز الخدمات فى هذه القرى . وكان إقناع هذه
الأسر بالتساكن معاً . . . عملية غاية فى الصعوبة . . .
وفشلت مشاريع الإسكان أكثر من مرة .
بين عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٦ أخرج الأهالى من أكواخهم التقليدية
وأسكنوا جماعات فى قرى متجاورة لمراقبة مرضى النوم بينهم . . . فانتشر بينهم
السخط وهجروا أراضيهم وزراعاتهم وهربوا إلى الغابة .
وأعيدوا مرة أخرى إلى تجمعات سكنية على الطريق العام فلم تثمر هذه
المحاولة الثانية سوى انتشار الفوضى والذعر والأمراض التناسلية . وآخر محاولة
منذ سنوات كانت إنشاء قرى نموذجية فى ضواحي يامبيو حاول فيها المشروع
أن يلتزم بالذوق المحلى لأهل البلاد . . . فأنشأ القرية على شكل هلال ونظم
استعمال الحقول بطريقة تتفق مع نظام الزاندى فى الزراعة . . . وأعطى كل
أسرة أربعين فداناً لتزرعها . . . وهو إغراء يسيل له لعاب أى أسرة من
فلاحينا . . . ولكن بالنسبة للزاندى . . . لم يكن لهذا الإغراء أى قيمة ،

فالزاندی لا يعرفون هذا النوع من الملكية ولا يهتمون بها . . ولا يفهمون معنى لأن يكدم الإنسان ملكياته ويراكمها . . ولا أن يطلب من الدنيا أكثر من حاجته .

لا يفهم الزاندی معنى لأن يزرعوا محصولاً مثل القطن . . لا يأكلونه ولا يشربونه . . لمجرد أنه محصول يباع وله قيمة نقدية . . وما حاجتهم إلى النقد ؟ .

وكانوا ينظرون إلى الأوراق النقدية التي يقبضونها باحتقار ، ولم يكونوا يفهمون أن هذه الأوراق النقدية لها قدرة على التبادل المطلق . . وأنها يمكن أن تتحول إلى أى شيء يرغبون في شرائه من السوق . .

وظلت زراعة هذا المحصول العجيب . . وجمعه وحمله مسافات طويلة إلى محطات الاستلام ، في نظرهم . . نوعاً من السخرة .
وكانوا يعبرون عن هذا بقولهم . « جا أيرانجى سونجى » هذا عمل من أعمال الحكومة .

ولجأت السلطات إلى فرض « الضريبة الشخصية » على الزاندی واشترطت دفعها نقداً لكى ترغم القبائل على السعى وراء العملة النقدية وكانت عقوبة التخلف عن هذه الضريبة هى السجن الطويل . . ولكن النتيجة كانت عكسية . . فقد أقبل الزاندی على السجون إقبالاً شديداً إذ وجدوا فيها كل ما كانوا يفتقدونه . وجدوا وجبات الأكل المنتظمة . والأمان فى رحاب الحكومة .

وكان الواحد منهم إذا انتهت فترة سجنه يركبه حزن شديد ويلح فى الرجاء لبقى فى السجن .

وألغيت الضريبة لعدم جدواها .

وظهرت مشكلة أخرى خطيرة . . هي عدم احترام العامل البدائي للمواعيد وكان العمال يتغيبون عن المصانع بالعشرات . . بالساعات وبالأيام . .

وخصصت منحة شهرية كجائزة تمنح لمن يواظب عشرين يوماً بلا انقطاع عن العمل .

ولكن العامل لم يكن يفهم الزمن كما نفهمه . . لم يكن يعرف من دنياه إلا الليل والنهار . . أما الساعة . . والدقيقة . . والثانية . . فهي أشياء لا يستطيع أن يتصورها وماذا تعني ساعة . . أو دقيقة . . أو ثانية . وماذا تعني العجلة . . والسرعة . . ولماذا السرعة . . ولماذا العجلة ! ؟

ومن ناحية أخرى كان إغراء المال في المصنع لا يعوض هذا العامل عن سعادة أخرى أشد إغراءً هي سعادة الانطلاق في الغابة للصيد والرقص والغناء .

ولهذا كان العمال يتركون المصانع جماعات في مواسم الصيد للانطلاق في الغابة . . ويتركون أجورهم ويفضلون عليها لذائد المرح والرقص والصيد . وثارَت مشكلة أخرى هي استخدام الحيوان في النقل .

والزاندی لا يعرفون الحيوان إلا صيداً يؤكل . . أو وحشاً مفترساً لا يؤمن له جانب . . ولا عهد لهم باستئناس الحيوان .

وهم يحكون هناك حكاية سلطان الدنكا الذي أهدى سلطان الزاندى بقرة حلوباً فكان السلطان يأمر بحلب لبنها في حفرة ويواريه التراب .

وقد ثارت مشكلة استئناس الحيوان من جديد حينما فكر المشرفون على

المشروع في استخدام الحمير للنقل . . . وجلبوا أربعة حمير من « كابويتا »
تكلف نقلها خمسين جنيهاً . . . وكان يوم قدومها إلى أنزاراً يوماً رهيباً . فقد
ساد الذعر بين الزاندي وفروا هاربين من الحمير وهم الذين يقابلون الأسود
ويصارعونها وجهاً لوجه . . . وبعد محاولات متكررة لإقناعهم بدعوا يقتربون
منها على حذر . . . وكانوا يزغرون إليها بجانب عيونهم وهي ترعى في الحقل .
وحيثما بدأ استخدام الحمير . . . اتضح أن هناك عقبة ثانية . . . فالحمير
التي شدت إلى العربات رفضت أن تتحرك ووقفت صامته . . . ولم يستطع
أحد أن يعلو ظهرها . . . فما يكاد أحد يعلوها حتى تجندله على الأرض .
وهكذا وقف المسئولون حائرين . . . بين إقناع الحمير وإقناع الآدميين .
عقبات كثيرة مثل هذه العقبات وغيرها . . . اعترضت المشروع .
ولكن المشروع استمر .

وعلى مدى عشرين عاماً . وبرغم العقبات . . . استطاع أن يحقق الكثير
لأن إرادة ألوف العاملين كانت تسنده .

الحكام العسكريون في مناطق الجنوب . . . كانوا أكثر من مجرد رجال
عسكريين . كانوا رواداً وطلبة . وكانوا يكافحون في مقدمة الصف لتغيير المنطقة .
وباحثون ومفكرون من السودان . هاجروا إلى الجنوب ووضعوا
الدراسات والمؤلفات والكتب ومن أهم هذه الكتب - كتاب « التغير
الحضاري للدكتور محي الدين صابر » ويعتبر مرجعاً من أهم المراجع في تطور
المنطقة .

وبالعمل الدائب . . . وبالصبر . . . وبالإصرار . . . حدثت المعجزة . وتغير
وجه الغابة .

وحينما تتجول الآن بعينيك في هذه المجاهل . . فإنك تكتشف أن أشياء كثيرة قد تغيرت .

اختفى العرى من الأكواخ . .

وأغلب الزنديات الآن يلبسن الثوب كما تفعل الشماليات تماماً .
وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واضحاً . . وأصبحت لغة يومية لمعظم
الذين يعيشون في التجمعات المدنية .

وارتفع مستوى حياة الزاندى ارتفاعاً ملموساً في مأكلاتهم وملبسهم .
وأقبلوا على شراء سلع عصرية جديدة . مثل البسكليت . والبطاريات .
ودخلت زراعات نقدية جديدة كالبن والأرز والشاي والدخان . وبعض
الصناعات الجديدة كتعليب الفواكه .

وبلغ المزرع من الأرض في المشروع ٦٠ ألف فدان . . يقوم المشروع
بتصنيع ثلثها .

وتضاعف عدد المدارس في الجنوب فأصبحت أكثر من أمثالها في
الشمال .

واشترك الزاندى كغيرهم من الشعب السودانى فى الانتخابات العامة
لأول برلمان سودانى عام ١٩٥٣ .

وأضرب عمال الزاندى عام ١٩٤٥ مطالبين برفع أجورهم .
وتغير نظام الملكية القديم . . ودخلت فكرة التملك الفردى المخصص .
الغاية تحولت إلى مدينة .

العلم دخل الأكواخ .

المدائن الرشيقه أصبحت أطول قامه من الأشجار الباسقة . .

الصناعة حولت القواكه إلى علب وكومبوت ومربى . . وحولت
الأشجار إلى طقاطيق . . والتماشيح إلى شنط سيدات . . والتمور إلى
شباشب . .

والسود الذين كانوا عرايا لبسوا بنطلونات .

تقدم كبير .

لقد أعطت المدينة الكثير لهؤلاء البدائيين . . .

ومع هذا .

لو أننا نظرنا إلى هذه الأمور بدون التحيز لمقاييسنا ومدنيتنا . ولو أخذنا
المسائل بشكل أكثر حياداً . . لوجدنا أن هذا التقدم كان له ثمن . وأن
هؤلاء البدائيين قد دفعوا الكثير في مقابل هذه الخرقه من القماش التي
وضعوها على أبدانهم .

إن الرجل البدائي كان يأخذ العرى ببساطة وبراعة وخلوص نية . .
ويتعري كنوع من التكيف مع بيئته الاستوائية الحارة . . ولا يخطر على باله
مسائل جنسية أو لذات حسية . وهو في الحقيقة أقل منا إفراطاً بكثير في
حياته الجنسية . . فهو لا يقرب زوجته إلا مرتين في الشهر . . وهو لا يقربها
أبدًا وهي حامل . . وهو ينقطع عنها ستة . . وفي بعض القبائل سنتين بعد
الولادة . . وهي أشياء أشبه بالصوم الجنسي .

ونحن عرفياً نغطي أعضائنا التناسلية ومع ذلك نستخدم شفاهنا كأعضاء
تناسلية وأكثر .

وتعدد الزوجات بين هذه القبائل لم يكن أبدًا شاهدًا على همجية
الرجل . . فالمرأة في هذه القبيلة لم تكن أبدًا سجينه البيت قليلة الحيلة كما هي

عندنا . . وإنما كانت دائماً عاملة . . كنفها بكتف الرجل في كل مكان . . وحره اقتصادياً مثله . . وفي الزندى تنفق المرأة على البيت لأنها هي التي تزرع الحقل وتجمع المحصول وتحمله إلى محطات التسليم وتأخذ ثمنه في حين يتمدد الرجال معظم الوقت تحت ظلال أشجار المانجو يدخنون . . والزواج بأكثر من واحدة لا يتم برغم الزوجة ولكن برغبتها ومشورتها . . والزوجات في العادة يتنافسن أيهن التي تجمع المهر قبل الأخرى لتقدمه إلى رجلها ليتزوج به زوجة جديدة . . لأن معنى زوجة جديدة . . أيدي جديدة تعمل معها في الحقل .

تعدد الزوجات لم يكن علامة همجية . . وإنما وسيلة بقاء لقبائل ضعيفة مهددة بالفناء والانقراض تبحث بفطرتها عن نسل بأي طريقة وتبحث عن وسيلة للإكثار من الأيدي العاملة . . وهو بهذا المعنى فضيلة . . فضيلة حفظ النوع ذاتها

والديانات البدائية لم تكن تخلو من إدراك لمعانى الربوية . . وكان فيها تصوراً رحيماً لآخرة ترفرف فيها الأرواح سعيدة على ذرى الجبال لا عمل لها سوى استدرار الرحمت على الأرض .

والمجتمع البدائي كان يتبادل قيمة صادقة هي قيمة العمل . فأفراده يتقايضون ويتواهبون ويتبادلون الخدمات ولا يعرفون الأجر . . فالواحد منهم يعطى خدمة مقابل خدمة لا مقابل عملة نقدية . . والملكية بينهم ملكية عمل . . كل واحد لا يملك سوى عمله . . يعطى منه على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته . . دون أن يعرف الاكتناز أو الادخار . . أو تكويم ما يملك في رأس مال وثروة . .

والضمانات الوحيدة بينهم كانت هي التعاون والتماسك في أسر وقبائل ذات تقاليد .

لا فردية .

لا أفراد يركون لحالمهم يشحنون ويموتون جوعاً . . وإنما كل القبيلة تمسك بعضها بدستور صارم من الحقوق والواجبات .
والمصير الذى ينتظر الجميع بعد الموت . هو صورة مرحلة . . الحياة روحية . . تمرح فيها الأرواح بين الناييع والجداول وتشملها المغفرة من رب كريم .

ونتيجة لهذه الحياة المفعمة بالبراءة . . انتفى الشعور بالهم والخوف من المستقبل . . وانتفى الحزن والقلق .

والنتيجة أنك لم تكن تجد في الغابة الوجوه النكدية المربدة بالهموم . . ولا الوجوه الكشرة العكرة التى تراها في المدينة . . وإنما كنت ترى وجوهاً ضاحكة بسامة فياضة بالمرح ، وتشاهد حلقات يومية من الرقص والغناء وترى الدعابة والرقه وحب الغرباء وتلمس الطبيعة المسالمة .

مجتمع لم تكن تنقصه الأخلاق . . وإنما كان ينقصه العلم .
ومع ذلك فالعلم وما استحدثه من صناعة ومدنية . . لم يكن كله خيراً على هذا المجتمع البدائى . .

الصناعة أقبلت على ساكن الغاب ومعها شرورها وتعقيداتها . . فقد تسلمته طفلاً إلهياً بسيطاً يعيش على الرقص والغناء ، ولا يطلب من الرزق أكثر من حاجته ولا يفهم من الملكية إلا ملكيته لعرق جيئه فعلمته الطمع والإكتناز والخوف والتأمين على الحياة في الشركات وفتح الحسابات في

البنوك وتكويّم الثروات والبحث عن ضمانات لهذه الثروات بتكويّم ثروات أخرى بجانبها . . . وعلمته الهم والحزن والقلق . . . وعلمته الإحساس بوطأة الزمن الذى يأكل عمره . . . وأخذت بيده إلى حياة أحسن . . . ولكن فى نفس الوقت حياة أتعس .

إنه يتقدم .

لكنه يتقدم بثمرن .

وليس لنا أن نشعر بالكثير من الغرور لأننا أعطيناه من علمنا . . . فإننا أيضاً قد سلبناه الكثير . . .

وقد دفع لنا ثمن هذه الخطوط من الكهرباء التى مددناها إلى أكوأخه المظلمة . . . من صميم نور قلبه . . . ومن صميم براءة روحه . . . ومن صميم سعادته . . . وضحكاته .

الشيلوك

كانت الباخرة تسير ببطء . . كأنها سلحفاة تمشي على بطنها . . وأنا
مغمى علىّ من فرط الحرارة في علبة السردين التي أنام فيها . . والمروحة ترن
على رأسي بلا جدوى . . ولا أجرؤ أن أفتح باباً أو شباكاً فأسراب البعوض
تحوم في أفواج كثيفة في الخارج ولا أكاد أتخيل أن أخرج إصبعاً حتى
لا تهجم عليه في وحشية .

وكلها من بعوض الأنوفيل حامل الملاريا .

وكانت الملاريا قد بدأت تكتسح المركب فالريس ، حرارته ٤٠ وإثنان
من البحارة يعانون رجفة الحمى . . وسائح هولندي يهذي في غرفته منذ
يومين . . وأقراص الكلوروكين والكاموكين متشرة في أفواه الركاب
كالبومبون .

وكنت أفتح عيني بين لحظة وأخرى . . وأنا في ضباب النوم . . فأرى
جزائر من النور تسبح طائفة على جانبي السفينة . .
هل أهدى أنا الآخر .

وأفرك عيني . . وأحملك حولي جيداً . .

. مازالت هناك تلك الجزائر من النور . .

إني لا أحلم ..

إنها جزائر من نباتات الهياسنث ساجحة في التيار تضيئها أنوار الباخرة على
الجانبين ..

وكان قمر خط الاستواء يبدو شاحباً يغلفه الضباب والبخار وخطر لي أن
أصعد على سطح الباخرة لأشاهد الطبيعة في تلك الساعة من الليل ..
ودهمت وجهي وأطرافي بطارد البعوض .. وخرجت ألتمس الهواء ولم
يكن ثمة هواء .. وإنما رطوبة راكدة تتكثف على الأهداب وعلى الجلد ..
وهواء ثقيل له ضغط ..

ولم تكن الطبيعة نائمة كما تصورت .. وإنما كانت صاحبة جياشة
بالحركة والحياة ..

أسراب الفيلة تملأ المراعى .. وتماسيح النيل الضخمة تمرح حول
الباخرة وقطعان سيد قشقة تستحم .. وآلاف الكروانات والبلابل
والعصافير والنسور والطيور الملونة تخلق على ارتفاعات قليلة .. وجيوش
الحباحب المضيئة تلمع كسنون الإبر في الظلام ..

وحرب الطبيعة ناشبة على أشدها .. الحباحب تأكل البعوض والضفدع
يأكل الإثنين والأسماك تأكل الكل ثم يذهب الجميع في جوف التماسح في
صمت على حين يطل القمر شاحباً يغلفه الضباب والبخار .

ومن وقت لآخر يرشق الهدهد منقاره في الطين ليخرج بدودة كبيرة .
ويغطس طائر اللقلق في الماء ليخرج وفي فمه سمكة .

وترتفع هامات السفانا العالية وأشجار البردى وسيقان الهياسنث على
الشطآن لتحجب ما يجري في الداخل .. لا يندو عنها صوت إلا حيناً

يتخللها ثعبان فيخشخش بين أوراقها وهو يسعى ليرد الماء . . أو يتمطأ فيل
فهوى كتل من هذه النباتات المتشابكة وتتفتت ويجرفها التيار في جزائر عائمة
صغيرة تنعكس عليها أضواء الباخرة فتلمع في الظلمة .

كل صنوف الحياة كان يبدو عليها الانتعاش في هذا الجو الساخن . فهي
تتلاقح وتتوالد وتتكاثر وتأكل بعضها وتنقنق وترقزق وتشقشق وتفتح وتنبع
وتعوى وتملأ المستنقعات اللزجة وتشرب مياهها الراكدة في شهية كالحساء
وتنمو . وتبلغ أحجاماً عملاقة .

أشجار الإدليب كانت تصطف في طوابير شاهقة الطول على الجانبين .
وثمار الإدليب كانت تتساقط في الماء . . كل ثمرة في حجم البطيخة (وهي
من فصيلة الدوم) . . أشجار البردى كانت تنمو في وحشية حتى تسد
الأفق .

التماسيح كانت تشق الماء شهباء اللون . كالحة ضخمة . . كالبورج
الحرية .

كانت هذه البيئة الساخنة هي البيئة المختارة لهذه الفصائل من الحيوان
والنبات . . شيء واحد لم يكن يظهر إلا نادراً في هذه المتاهات الاستوائية
الشاسعة . . هو الإنسان . .

كل بضعة أميال كان يظهر واحد أو اثنان أو ثلاثة من الزوج عراة . .
يحملون الحراب .

وكلهم من قبيلة الشيلوك .

والشيلوك . والدنكا . . والنوير . . هي القبائل التي يلقاها المسافر في هذه
المنطقة من النيل بين كوستى وملكال وبور وجوبا .

وزنوج هذه القبائل يسرون عرايا .
وأحياناً تجد الواحد منهم عرياناً « ملط » ولابس كرافته .
وهم ينظرون إلى المدنية بهذه الطريقة من التريقة فالثياب في نظرهم مجرد
تقليعة بلا وظائف . مجرد زوائد لا معنى لها . . كزر الطربوش .
ومعظمنا كنا قد بدأنا نعتنق هذه الفلسفة . . فقد كنا نسير على سطح
المركب أنصاف عرايا لافرق بيننا وبين الشيلوك إلا نصف متر الدبلان الذي
يقتضيه الحياء التقليدى . .

ولكن الشيلوك لم يكونوا رواداً في مسألة الثياب وحدها . . ولكنهم
كانوا رواداً في كل ما هو بدائى . . وكانوا يرفضون بشدة كل ما هو مدنية . .
ويتمسكون بكبرياء بتقاليدهم .
ومن الدراسات التى قرأتها عن هذه القبيلة . . كان يبدو أنها قبيلة
شديدة التدين . . شديدة التمسك بعباداتها وتقاليدها .

وديانة الشيلوك ديانة وحدانية . . فهم يؤمنون بإله واحد يسمونه
« جوك » ولكن فهمهم لهذا الإله الواحد غامض ومضطرب فهو فى نظرهم
خفى وموجود فى كل مكان وخالق للسماء وللأرض ولكن مشيئته لا تنفذ إلا
عن طريق « نيا كانج » .

و« نيا كانج » هو ملك الشيلوك القديم الذى أنشأ قبيلة الشيلوك . وهو
فى اعتقادهم لم يميت وإنما تحول إلى ربح واختفى . ثم حلت فيه روح
« جوك » . . وأصبح ممثلاً لمشيئته على الأرض . . ولهذا فهم يصلون له
ويقيمون له المعابد ويقدمون له القرابين .

و « نيا كانج » متصل اتصالاً يومياً بحياة الشيلوك . . أما « جوك » أو الله فهو شيء مجرد وبعيد ومتصل أكثر بالكون كله .

ومعابد النيا كانج هي وحدات سكنية عادية يعتقد الشيلوك أن روح « النيا كانج » تسكنها . . وتتألف الوحدة من خمسة أو ستة أكواخ مثل أكواخ السكن العادية التي يسكنها الشيلوك مع فارق أنها أكثر اتساعاً ونظافة ويقوم على خدمتها كهنة من عجائز الشيلوك ومعهم زوجاتهم الطاعنات في السن . . ومحرم دخول هذه المعابد لأي فرد من أفراد الشعب فيما عدا هؤلاء الكهنة . . وعلى من يدخلها من النساء والرجال أن يكون صائماً صياماً تاماً عن الاتصال الجنسي .

والكوخ الأول من هذه الأكواخ ينحصر لتزول روح « نيا كانج » وفيه توضع أسلحته وأدواته وقيثارته وطبوله وجلود قرايينه وعلى بابه تغرس قرون الأضاحي التي قدمت له .

والكوخ الثاني ينحصر للماشية التي تخص المعبد . . والثالث لحزن الحبوب وتخمير المشروبات . . والرابع للكهنة والخدم والعبيد . . والخامس لتقضى فيه روح « نيا كانج » حاجتها وتستحم وتتبول . . والسادس لتتزل فيه روح « نيكايا » والدة « نيا كانج »

ويرتل الكهنة في صلواتهم قائلين .

يا إلهنا . . نجنا . . بيدك وحدك نجاتنا . . أنت تملك السماء ولأرض والنجوم . . وبمساعدة « نيا كانج » تقوى أذرعنا عند الحرب . . وتحفظ لنا ماشيتنا . . وتبعد عنا المرض والجوع . . كل أبقارنا مبدولة من أجلك . . وكل دماثنا فداؤك . .

وهم يذبحون الثيران التي تقدم قرابين ويأكلون لحومها ويرمون بعظامها في النهر . . أما الأبقار فيحفظونها في حظيرة المواشي بالمعبد . .

وأهم الطقوس الدينية طقوس المطر . . وطقوس الحصاد . وفي يوم الاحتفال بطقوس المطر تدق الطبول في ساحة المعبد التي تكنس وتنظف للمناسبة ويجتمع الشباب للرقص بالحراش والسيوف وللغناء لروح « نيا كانج » ثم يؤتى بثور القربان ويضع الكاهن في كفه بعضاً من ماء النهر ويصق فيه ثم يرش به الثور ثم يطعنه طعنة نافذة في أعلى الفخذ . . ويتركه ليدور في الساحة حتى يخر ميتاً . .

وهم يستبشرون إذا اتجه الثور المحتضر إلى النهر أو إلى كوخ « نيا كانج » . ويحتفظ الكهنة بالرأس والسيقان والأحشاء ليأكلوها . . ويلقون بالعظام في النهر .

ويعتقد الشيلوك أن روح « نيا كانج » يمكن أن تحل في عديد من الحيوانات مثل الزراف والثعبان والتمساح وطائر الأكاك . . وحينما يرى الشلوكي فراشة تقف على باب المعبد يصرخ هاتفاً . . هذه روح « نيا كانج » .

وأى شجرة تنبت بالقرب من معبد « نيا كانج » تقدس ولا تمس ويعتقد أنها من أخشاب مقبرة « نيا كانج » .

وصيد التمساح محرم لأن الشائع أن روح « نيكايا » أم « نيا كانج » تحل فيه وهم يعتقدون أن روح « نيكايا » تعيش في الماء ولذلك يلقون بالشاة التي يقدمونها قرباناً لروحها وهي حية ومقيدة من أرجلها في الماء . . وكل ملوك

الشيلوك مقدسون على مثال « نيا كانج » . ولهذا فهم يدفنون وتقام لهم معابد على مثال معبد « نيا كانج » ولكن أصغر حجماً .

والموتى من الأجداد يعاملون معاملة الملوك ويعتقد أن فيهم روح « جوك » وأنهم على اتصال بالله .

وأرواح الأجداد لا تنفصل في ديانة الشيلوك عن أرواح الملوك أو روح « نيا كانج » أو روح « جوك » .

ويتشاءم الشيلوك من الملك الذى يطعن فى السن ويقعده المرض ويعتقدون أن ما يصيب الملك من مرض وشيخوخة لا يلبث أن يحل بالقبيلة كلها . وكانوا فى الماضى يقتلونه .

والقرايين البشرية غير مألوفة عند الشيلوك ولكنها كانت تقدم فى أحوال نادرة حينما تفشل الطقوس العادية فى استدرار المطر .

وكان المتبع أن يقتل الضحية وتدفن خصيته (وهى رمز الإخصاب) فى مجرى ماء ، . وكان هذا القتل يتم فى سرية ويقوم به الطبيب الساحر . والأطباء السحرة نوعان . . « أجاجو » وهم أحباب الله الذين يسعون فى الخير وفى شفاء المرضى . . « والجالايات » وهم محترفو السحر الأسود الذين يسحرون بالضرر والشر .

ومحترفات السحر الأسود من النساء اسمهن « الدايات » .

والساحر الذى يبدأ الاشتغال بالسحر ينفصل عن زوجته ولا يجتمع بها ويتخلص مما يملك من أبقار ويعيش فى وحدة وخلوة وتقشف . . وبالمثل المرأة « الداية » التى تشتغل بالسحر .

ويقال بلغة الشيلوك إن ما هو جسدى فى الساحر ينكمش ، وإن الروح

تتلبسه وتنتشر فيه .

والشيلوك يؤمنون بالحسد والعين الشريرة . . والسحرة يعالجون الحسد بإحضار شاة وفوء عينيها بقضبان محمية من الحديد مع تلاوة الأدعية والتعاويذ . . وتكون نتيجة هذه التعاويذ أن يصاب الحاسد بالعمى ويشفى المريض من الحسد .

ويعتقد الشيلوك في أشباح وعفاريت بشرية غير طبيعية تسكن النهر والغابة ويعتقدون في ثيران ليست لها آذان وليست لها قرون تعيش في الدغل . ولكنهم لا يعلقون أهمية كبيرة على ذلك .

ويعيش ملوك الشيلوك في أكواخ عادية لا تمتاز بشيء عن أكواخ الشعب . . وبنات الملوك لا يتزوجن إذ أن زواجهن من داخل العائلة الملكية محرم . . وزواجهن من خارج العائلة الملكية بالأشخاص العاديين لا يليق بينات الملوك . . ولكن بإمكانهم أن يستمتعن بالحب مع من يشأن من الرجال بشرط ألا يحملن منهم . .

وزوجة الملك تقدم الطعام لزوجها وهي راكعة على ركبتيها ووجهها ملتفت بعيداً عن الملك ويدها تغطي أسفل وجهها . . وبعد أن يأكل تصب على يديه الماء . . وهي «أزالت تشيح بوجهها» .

ومحرم على أى فرد أن يجلس في حضرة الملك وهو ناظر إلى وجهه . على الجميع أن يشيحوا بوجوههم ويحجبونها بأيديهم .

وعلى مشايخ القبائل الذين يعينهم الملك أن يقسموا يمين الولاء بين يديه

ثم يمسك كل منهم بحربة الملك ويقبلها ويلعقها بلسانه ويضغطها على جبهته ثم يلوح بها في الهواء . . وعليه بعد هذا أن يبقى في كوخه معتزلاً أربعة أيام

كاملة يصبح بعدها الشيخ المختار من الله ..
وجميع أطفال الشيلوك فيما عدا أطفال العائلة المالكة تتزع أسنانهم
الأربعة الأمامية بالفك الأسفل .. وكل الأولاد تجرى لهم عملية
« التشليخ » وهي قطوع عرضية مميزة في الجبهة ..
وبدون هاتين العمليتين لا يعتبر الواحد منهم قد أصبح رجلاً ..

الدنكا

الدنكا أكثر قبائل الغابة تديناً . . وهم يعتبرون كل ظاهرة تحدث في الحياة اليومية حتى الظواهر التافهة إشارة إلهية تستدعى ذبح شاة وتقديم قربان . .

ومما يروى أن أول طائفة أوربية نزلت في تونجى بين قبائل الدنكا أثارت حالة من الرعب كانت نتيجةها أن ذبحت أكثر من خمسين من الثيران وقدمت قرابين . . وتقدم رجل عجوز من الدنكا واعترف بجريمة قتل كان يخفى خبرها من سنين . .

ومن الأمور العادية أن يلاحظ رجل من الدنكا وهو يقف في حديقته ثمرة كبيرة من ثمار المانجو . . أكبر من الحجم العادى . فيهلل ويكبر ويأتى بشاه ويدور بها عدة مرات حول شجرة المانجو وينتظر حتى تبول فيذبجها ويسكب دمها على الثمرة ويقطع أذنيها وأطرافها ويعلقها على سارية ويسلخها ويوزع لحمها على جيرانه ويقدم جلدها لكهنة « نبالاك » .
و « نبالاك » هو الرب الذى يعبد الدنكا وينظرون إليه باعتباره خالق الدنيا ومؤسس نظامها . .

« ونبالاك » معناها الحرفى « الذى فى السماء » . . أو « الأعلى » .

والقوة الروحية الثانية التي يؤمنون بها هي « دنجديت » . . . صانع
الأمطار « ولدنجديت » قصة مثيرة . . .

فقد أنزله الله من السماء . . . بعث بالأم المقدسة من سمواته فهبطت على
قبيلة أديرو وبطنها حامل . . .

والتف حولها القرويون وذبحوا الذبائح والقرايين فرحين مهللين . . . وابتنوا
لها كوخاً جميلاً . . .

وبعد شهر كانت تضع مولوداً ملائكياً له أسنان كأسنان الكبار ويكي
من عينيه دماً .

وقالت الأم المقدسة وهي تشير إلى طفلها . . . سيكون هذا الطفل
راعيتكم . . . وحامي دياركم . . .

وطلبت منهم أن يقدموا له الشياه والأبقار قرايين فقدموا لها ما طلبت
فانشقت السماء عن أمطار غزيرة لم يشهدوا لها مثيلاً .

ومن ذلك اليوم أطلقوا على الطفل اسم « دنجديت » أى المطر الغزير .
وعاشوا تحت حكم « دنجديت » سنين طويلة حتى بلغ « دنجديت » سن
الشيخوخة ثم اختفى فى عاصفة فلم يعثر له على أثر .

وفى بعض الحكايات أن « دنجديت » مازال حياً . . . وأنه خالد لا يموت
وأنه ينتقل بين قبائل الدنكا متلبساً بصورة بشرية . . .

وفى إحدى الأساطير أن « دنجديت » هذا اختلف مع زوجته « أبوك »
وأرسل عليها طائراً قطع حبل النجاة بين السماء والأرض . . . ومن ذلك
اليوم والسماء منفصلة عن الأرض ،

« ولدنجديت » معابد كثيرة فى قرى الدنكا .

ومعبد « الدنجديت » وحدة سكنية عادية تتألف من ثلاثة أكواخ .
أحدها مغلق دائماً وهو مسكن « الدنجديت » . ويقوم عليه اثنان من الكهنة
هما الوحيدان اللذان يدخلا نه .

وفي المعبد مجموعة من الحراب يقال أن « الدنجديت » نزل بها من
السماء ويقال إن من يسرقها يموت أو تقطع يده .

وحيثما يتقدم واحد من الدنكا بقربان إلى كاهن « الدنجديت » ويشكو
من عقم زوجته مثلاً فإن الكاهن يمهلُه حتى يرى « الدنجديت » في الحلم . .
وهو في العادة لا يقبل منه قرباناً حتى يأتيه « الدنجديت » في الحلم ويعلنه
بقبول القربان . وحيثُ يأذن الكاهن للدنكا بالمثل بقرايينه . .

وبعد تقديم القربان يمسح الكاهن على رأس الزائر بمسحة من تراب
المعبد ثم يدهن جسمه بالزيت المقدس . ثم يأخذ محتويات أمعاء الضحية
وينثرها على المذبح .

وأحياناً يقدم الزائر هدية من التبغ مع القربان .
والدنكا يعتقدون أن كل إنسان له روح أو شبح يخرج منه بالموت
ويتجول في كل مكان ، وهو الذي يسبب الأحلام . .

وحيثما يحلم الواحد منهم بأن روح أبيه الميت جائعة فإنه يبادر حيناً بتيقظ
بوضع إناء فيه بعض الدقيق والزيت إلى جوار الباب ليطعم الروح الهائمة . .
وأرواح الأجداد ينظر إليها بتقديس وإجلال باعتبارها أرواح هادية
منقذة . .

وأنت ترى الدنكا حينما يقذف بسهمه في الماء ليصطاد يهتف قائلاً إيه
ياروح أبي الهادية . .

وأحياناً حينما يتعرض لخطر داهم يهتف منادياً على روح الطوطم الحيوانى الذى يقده . . إيه ياروح ماريك ياروح الثعبان المقدس . . قوى ذراعى . .

والعظماء المختارون تلبسهم الروح العليا . . وتكون لهم القدرة على كشف الغيب وعلاج المرضى . . ويطلق عليهم اسم « تيت » ويذهب أفراد القبيلة لاستشارتهم . .

والدنكا يؤمنون بأثر اللعنة والبركة . .

والأنب يبارك ولده بأن يبصق فى يده ويمسح البصاق على رأس ولده وعلى صدره ثم يأخذ من تراب الأرض ويحسوه عليه .

والأخ يلعن أخته ويقول لها فى ساعة غضب . . إذهبي لن يكون لك ولد . . ملعونة أنت وعاقر ما عشت فى هذه الدنيا . . وهى لعنة لا علاج لها إلا بأن يذبح ساة ويأخذ محتويات أمعائها ويبصق عليها ويدهن صدر أخته وبطنها وهو يقول . . إسمعى ياروح أجدادى . . لقد قلت ما قلته دون أن أعنيه . . وأنا الآن أتمنى أن يكون لأختى ولد جميل . . وأن تنجب ما تشهى من الأطفال . .

والدنكا يؤمنون بأن الإنسان يستطيع أن يضر غيره بمجرد أن يشهى هذا الضرر نجاع قلبه . . وأن الإرادة يمكن أن تقتل كما يقتل السيف بدون أن ينتقل صاحبها من مكانه . .

وهم يؤمنون بالقسم . .

ومن الأساليب المتبعة فى القسم أن يلحق الرجل مطرقة الحداد وهو يقسم قائلاً . . لأمت وأتخطم بهذه المطرقة إذا كنت أحنث فى قسمى .

وساحر الدنكا يدعى أحياناً أنه يستطيع أن يؤخر غروب الشمس . .
وهو في سبيله إلى ذلك يجمع روث الفيل ويضعه بين الأعشاب في اتجاه
الغرب كمحاولة لإيقاف الشمس وتأخير دورانها .

وصانع الأمطار شخصية هامة بين الدنكا . . وهو في مقام شخصية
الملك ولا يجب أن يموت موتاً طبيعياً حتى لا تحل لعنة الشيخوخة بالقبيلة . .
وهو حينما يستشعر دنو أجله يطلب أن تحفر له حفرة عميقة ينام فيها على
عنجريب من جلد بقرة وحوله المقربون من ذريته وأصحابه . . ويظل بلا
طعام ٢٤ ساعة حتى يفتر تماماً فيهيل عليه أصحابه التراب حتى يختنق
فيبادرون إلى دفنه . . وفي العادة يدفنون معه ثوراً أو بقرة . . ويصبون اللبن
على قبره . .

وطقوس المطر تبدأ في نهاية الجفاف من كل عام . .
وأحياناً يرفض صانع الأمطار القيام بالطقوس ويعتكف في كوخه فيقوم
كاهن آخر أقل منه مرتبة بالإشراف على الطقوس . ويأخذ كوباً مثقوباً مليئاً
بالماء « مثل الدش » ويعلقه على باب الكوخ . . ثم يدخل وهو يغتم .
يا إلهي ها أنذا أحتمي من المطر في داخل كوكي . . ياله من مطر غزير . .
ويحدث في حالات كثيرة أن تصدق السماء على كلامه فتُمْطَر . .
وكل طائفة من طوائف الدنكا لها حيوان مقدسه وتحرم صيده « طوطم »
وتعتبر نفسها منحدره من سلالة . . وأحياناً تقدس نباتاً . . أو ظاهرة
طبيعية .

الأسد . . الثعبان . . والفيل . . والضبع . . والبومة . . والتمساح . .
والثعلب . . والنار . . والسحاب . . والنهر . . والقوقع . . ونخيل البلح . .

وأشجار البامبو . . كلها طواطم دنكاوية .

والدنكاوى الذى يقدس الثعبان حينما يلتقى بثعبان من الفصيلة التى يقدسها يرش على ظهره التراب ليطيب خاطره ولا يتعرض له بسوء .
والدنكاوى الذى يقدس الأسد يذبح خروفاً ويبعثر لحمه فى الغابة ليأكله الأسد .

والدنكاوى الذى يقدس الضبع يقدم الطعام للضبعا كما يقدمه لأولاده .
وإذا قطع رجل الشجرة التى يقدسها فإنه يموت وإذا أحرق خشبها فإن دخانها يعمى عينيه .

وهناك حكايات خرافية تروى عن هذه الطوطمية .
فالدنكاوية الذين يعيشون فى خور آدار يحكون عن « اليك » الجميلة التى خرجت من زبد النهر . . وكيف أن القرويين الذين عثروا عليها أخذوها فرحين إلى القرية . . وهناك تبخرت « اليك » وتحولت إلى ماء عند أول لمسة من يد رجل .

وحينما ذبح القرويون الذبائح وقدموا القرابين متوسلين إلى الجميلة « إليك » أن تعود . . سالت مياه « اليك » العطرية وعادت إلى النهر من الصغير فى موسم المطر قرباناً للجميلة « أليك » .

ومن يومها وهذه القبيلة الدنكاوية تلقى فى النهر بقرة حية مع عجلها الصغير فى موسم المطر قرباناً للجميلة « أليك » .

وفى قبيلة فاكور يحكون عن « فاكور » الذى خرج من الصخر . وكان يحلب العترات ويشرب كل ما فى ضرعاتها من لبن حتى قبض عليه البطل « أيويل » .

وحاول « فاكور » الخلاص من قبضة « أيويل » فلم يستطع فتحول إلى سيد قشطة ثم إلى عصفور ثم إلى غزال ولكن البطل « أيويل » ظل ممسكاً به .

وانفجرت الصخرة التي خرج منها « فاكور » وكان لها دوى هائل هصور . . . وقدم القرويون بقرة قرباناً للصخرة لإرضائها فابتلعها الصخرة . . . ونزل المطر مدراراً . . . وابتسمت السماء . . . وقبلت ما قدم القرويون من قرابين .

وما زالت السماء إلى الآن تسقط على الأرض هذه الصخور . . . ولكنها الآن لا تزيد عن حصوات صغيرة .

وبعض القبائل يعبدون الشهب والنيازك التي تتساقط على الأرض ويقدسونها كالطواطم .

والدنكا يطلقون على أطفالهم أسماء حسب المناسبات . فيسمى الواحد منه ابنه « ألوت » أى رطب وبارد . . . لأن ميلاده كان في موسم الأمطار . « أديو » أى الباكي . . . لأن ميلاده صادف حدوث وفاة في العائلة . « كوينير » الذى لا يعرف خاله . . . لأنه ولد في أثناء خلاف بين أبيه وخاله .

وأسماء أخرى مثل « الكل يصلى » لأن ميلاده حدث بعد فترة طويلة من العقم . . . وبعد أن اشتركت القرية كلها في الصلاة من أجل ميلاد ابن . . . وبعض الأسماء تكون أسماء أجداد أو أقرباء أعزاء أو حيوانات مقدسة . والدنكا يطلقون الأسماء على مواشيهم كما يطلقونها على أولادهم ويعرفون كل بقرة باسمها .

وعلاقة الدنكاوى بثوره وبقرته أكثر من علاقة إنسان بحيوان . فهو يغنى لها . . . ويحنو عليها . . وينادىها باسمها . . ويناجيها فى خلوته . ويبلغ من حبه لها أنه يؤثر موت أولاده فى موسم الجفاف جوعاً على أن يذبح لهم بقرة من بقراته .

وهو يفضل خلفه البنات لأن العرسان يمهرهن أبقاراً . وعادة تشليخ الجبهة ونزع الأسنان الأربعة فى الفك السفلى متبعة فى الدنكا كما فى الشيلوك . . ولا يعتبر الدنكاوى رجلاً إلا بعد أن تشليخ جبهته وتنزع أسنانه .

والنساء يسرن حلقات الرؤوس . . والرجال يصففون شعورهم ويدهنونها بالصمغ وبول البقر . .

والموتى يدفنون وفقاً لطقوس وتقاليد خاصة . . فالميت يوضع على جنبه اليمين ويده اليمين تحت صدغه وذراعه وساقاه مثنيان مثل الجنين فى بطن أمه . . وتحفر له حفرة على باب الكوخ من الجهة اليمنى . . يدارى فيها ويغطى بجلد بقرة ثم يهال عليه التراب . . ويبقى أقاربه حول الحفرة أربعة أو خمسة أيام نائمين فى العراء . . وتحسو النسوة التراب على وجوههن ويندبن ويعولن . . ويذبح ثور ويقدم لروح الميت لترضيته حتى لا يأخذ معه بقية العائلة . . وتبنى بالقرب من الحفرة طابية من الطين يرشق فيها قرنا الضحية . وتوضع فى وسطها عصا تتدلى منها حبل البهيمة إشارة إلى أن القربان تم تقديمه .

ويمتنع أهل الميت خمسة أيام عن شرب اللبن . . ويطلق النساء شعورهن ولا يخلقنها طوال هذه المدة .

النوير . . والبارى . . اللانجو . .

البونجو . . الدوى

النوير والدنكا أولاد عمومة واحدة . وهم مثل الدنكا يقدسون الأسد
والتمساح والثعبان وشجرة الكاك والنهر .

والنويرى الذى يقدس النهر حينما ينزل إلى النهر ليعبره يلقى بحبة من الخرز
فى الماء قائلاً للنهر . يا جدى العزيز . خذ هذه ودعنى أعبى فى سلام . .
والنويرية التى تقدس النهر لا تعبره عارية وإنما لابد أن تلبس إزاراً حول
نصفها الأسفل .

والنوير يؤمنون بالرب « كاوث » . وأطفاله ملائكة السماء . وكل ملاك
له عندهم اختصاص ملاك للحرب . . وملاك للصيد . وملاك للزراع .
وملاك للماشية . وملاك للأمطار .

والملائكة طيور . ولذلك يحرم النوير أكل لحم الطيور .
وحينما تحمل روح الملائكة فى نويرى فإنه يصبح نبياً . .
وأشهر أنبياء النوير هو « جان دنج » وقد بدأ حياته شيخ قبيلة
« كورمون » ثم تلبسته الأرواح فترك أكواخ عشيرته وهام على وجهه فى الغابة
حيث اعتكف تحت شجرة لا يأكل . . وبعد شهور من التأمل عاد إلى

كوخه ليستمر في الصيام . . وكان يقضى الأيام الطويلة يتحدث إلى نفسه .
ويحكي عنه أنه كانت له قوى روحية غير عادية . وأنه أوقف وباء
الجدري وطاعون البقر بصلواته وأدعياته وأنه كان يعالج العقيم والعاقرة
والمجنون . .

وقد بنى في عهده هرم كبير قاعدته قطرها ٣٠٠ قدم وارتفاعه ٥٠ قدمًا
وحول قاعدته مجموعة هائلة من سنان العاج .
والنويرى يؤمن بآلهته وملائكته ويتأسى ويتصبر بإيمانه إذا أصابه
مكروه . ويقول هذه إرادة « كاوث » .

وإذا ماتت له بقرة . يقول : كل ما أملك « لكاوث » . .
وبعض النوير لا يأكلون البقرة التى تموت . يقول النويرى فى حزن كيف
آكل لحم بقرتى العزيزة . وقد كنت أرقص حولها . وأشرب لبنها . وأدهن
ظهرها بالتراب .

ولكن هناك من النوير من يقول : العين والقلب ييكيان . ولكن
الأسنان تضحك والمعدة تشقى فى سعادة . وهو لهذا يدع الحزن جانباً
ويبادر إلى أكل بقرته التى تموت دون أن يتردد .

والنوير يحتفظون بخربة مقدسة فى كوخ ويضعون على حراستها كاهناً هو
الوحيد الذى يلمسها أما الباقون فمحظور عليهم لمسها .

وإذا حدث وراها أحدهم فلا بد له من ذبح قربان . . وهم يعتقدون أن
هذه الخربة نزلت من السماء ويقيمون لها الطقوس والعبادات .

والاختلاط . والعزى . . هو العادة بين النوير . وفى حفلات الزواج ينام
الأولاد والبنات معاً فى أكواخ واحدة . وهم لا ينظرون إلى البكارة

باعتبارها مسألة ذات أهمية .. والاتصال الجنسي ليس فيه حرجا طالما أن الولد والبنت لا تربطهما صلة دم . وطالما أنه لا يحدث حمل ..

والبنت التي تحمل بدون زواج تقل فرصتها في الزواج . وإذا وجدت زوجاً فإنها في العادة تكون الزوجة الثانية له ..

ولكن برغم هذه الحريات الممنوحة للبنات فإن البنت في العادة لا تعطى نفسها بسهولة . وهي غالباً بحكم دلالها واعتزازها بجسمها وأنوثتها تحافظ على نفسها ولا تعطى جسمها إلا لزوجها ..

والأرملة بعد وفاة زوجها تصبح من نصيب ابنه . أو أخيه . وفي إمكانها أن تتخذ عشيقاً وتعيش معه . ويكون الأطفال الناشئون متسبين للميت .. والرجل الذي يموت أخوه دون أن يتزوج يصبح من واجبه أن يتزوج زوجتين واحدة له وواحدة لأخيه الميت .. وإذا مات له عدد من الإخوة فإن عليه أن يتزوج عدداً من الزوجات بعدد إخوته الذين لم يتزوجوا .. وتستطيع الزوجة أن تطلق زوجها بأن ترد له أبقاره التي دفعها مهرأ وتعود إلى بيت أبيها .

والمهر يتراوح في العادة بين عشر بقرات ومائة بقرة يستولى على معظمها الأب والأخ والأكبر .

والنويرى لا يصبح رجلاً .. ولا أهلاً للزواج .. إلا بعد أن تجرى له عملية « تشليخ » .. وتترع أسنانه الأربعة الأمامية السفلى كالعادة عند الدنكا والشيلوك ..

وهم ينتزعون أسنان أولادهم بسنارة سمك . بدون أى محاولة لتطهيرها أو تعقيمها ..

وفي قبائل « البارى » نظام من نوع آخر . . فهم يتبعون فى حياتهم سياسة طبقية . . ينقسمون إلى سادة « لوى » وعبيد « دوى » .
العبيد يشتغلون بالخدمة فى الأكواخ وبطهى الطعام وقطع الأشجار
وليس لهم حقوق عند السادة سوى إيوائهم وإطعامهم .
والسادة أنفسهم ينقسمون إلى طبقات . طبقة الكهنة وعلى رأسهم
صانع المطر وهو رجل على المقام تحل فيه الروح العليا ويدفع له الجميع
ضرائب سنوية . . ويليه فى المكانة سيد الأرض وهو المشرف على البذر
والحصاد والرى والزراعة . وكلا الاثنين لهما حاشية من السحرة ومحترفى
التطبيب .

وهناك أيضاً شيخ القبيلة وأعيانها والأغنياء . . ويلى هؤلاء فى المكانة
أفراد القبيلة العاديون والصيادون والحدادون وهم فئات محتقرة . .
والبارى يعتقدون أن الطبيعة يسيرها إثنان من الآلهة . « جان لوكى »
وهو رب السماء . و « جان لوكاك » وهو رب الأرض .
والأول يرسل البرق والرعد والمطر ويبعث الحياة فى الطبيعة . والثانى
يبعث المرض والموت والحرب . وعنده مستقر أرواح الموتى جميعهم . وهو
كامن فى جذور الأشجار . وفى البذور الكامنة فى الأرض .
وهم يقدمون القرابين والذبائح لل اثنين ولرب الأرض والموت أكثر
لاسترضائه وتطبيب خاطره .

وهم فى العادة عندما يموت لهم ميت يذبحون ثوراً أو بقرة أو عترة .
ويعلقون الحبل الذى كانت تساق به فى عصا ترشق إلى جوار الحفرة التى
دفن بها الميت إعلاناً لرب الموت والدمار بأنهم قد ذبحوا له القرбан حتى

يتركهم في حالهم .

والبارى يقدسون أرواح موتاهم ويعتقدون أنها يمكن أن تحل في حيوانات عديدة ولهذا فهم يقدسون الأسد والثعبان والتمساح مثل سائر القبائل . ويعتقدون أن الثعبان الأخضر الذى يظهر فى الغابة هو روح جدتهم فيقدمون له اللبن ليشرب . ويتبركون بشجرة التين ويدهنونها بالزبد واللبن ودم القربان فى المناسبات .

وفى نهاية موسم الجفاف تتجه جميع قبائل البارى إلى صانع المطر تحمل القرابين والذبائح وفى العادة تذبح بقرة سوداء وعنزة سوداء وتمسح بدمها وبدهنها الأشجار المقدسة . ثم يلجأ صانع المطر إلى كوخه . ويستخرج حجارة الأمطار وأغلبها حجارة من الكوارتز والزجاج ويغسلها بالماء ثم بزيت السمسم وهو يقرأ عليها الأدعية والابتهالات وكلها نداءات إلى أرواح أجداده باستدرار المطر فإذا لم تنفع هذه الأدعية فإنه يذهب بنفسه ليمارس هذه الطقوس على قبور أجداده . . فإذا لم تنزل الأمطار فإنه يذبح ثوراً ويقدمه قرباناً . ويمسك بخطاف حديد يحتفظ به للمناسبة ويرفعه إلى فوق ثم يجذبه إلى تحت كأنه يشد شيئاً . وهو يقول إنه يشد السحاب إلى الناحية التى يريدتها .

فإذا لم تنزل الأمطار بعد كل هذا . فإن القبائل الثائرة تقبض على صانع الأمطار وتقتله .

وطقوس الدفن تشبه طقوس الدنكا . يرقد الميت على باب الكوخ على اليمين إذا كان امرأة . وعلى اليسار إذا كان رجلاً . ويوضع الجسد فى وضع جنينى على الجنب الأيمن وعينه متطلعة إلى داخل الكوخ ثم يغطى بجلد

بقرة . وتملاً الحفرة بالتراب . ويضع أقارب الميت التراب على رؤوسهم . وترقص القبيلة رقصة الحرب وتذبح شاة وتقدم قرباناً للمناسبة ثم تقام وليمة يُذبح فيها عدداً من الثيران يتناسب مع ثروة الميت ويصل أحياناً إلى مائة ثور وتوقد النيران على أطراف القرية وتشوى الذبائح ويأكل أفراد القبيلة ثم تلقى الفضلات في النهر وتعلق قرون الذبائح على عصي ترشق بجوار الحفرة التي دفن بها الميت .

وإذا كان الميت هو سلطان القبيلة فإنه يترك في الحفرة ثلاثة أيام يقدم له الطعام فيها كل يوم حتى يتعفن وتتفجر بطنه ثم يدفن ويهاال عليه التراب . . . وتدور حلقات الرقص حوله . . . وفي الماضي كان أحد عبيد السلطان من « الدوبي » يقتل ويدفن بجواره . . .

وإذا كان الميت هو صانع المطر فإنهم يبادرون بإغلاق فتحات جسمه حتى لا تهرب الروح . . . يسدون أنفه وفمه حتى فتحة الشرج يسدونها ، . ثم يدفن كالعادة مع تقديم القرابين والرقص حوله . . . وإذا مات صانع المطر مقتولاً نتيجة لعجزه عن استدرار المطر . . . يلقى به في الغابة إلى جوار النهر ويغطى وجهه بالطين وتفتح بطنه حتى تخرج روحه الشريرة التي يعتقد الباري أنها تحبس عنهم المطر . . .

* * *

وعلى الضفة الغربية للنيل في الجنوب تعيش طوائف « الدوبي » وهم أكثر أهل الغاب بدائية . لا يعتمدون على زراعة ولا على رعى . وإنما يعتمدون على الغابة مباشرة . يتغذون على عيش الغراب وبعض أنواع

الجدور . والفواكه . وعسل النحل . ويصطادون فيران الغابة ويأكلونها
ولا يعرفون نظاماً . ولا يتجمعون في قبيلة . ولا يتساكنون في قرى . وإنما
يقيمون على وجوههم كالحوانات البرية يعيشون على ما يجدونه .
وهم أقرب أهل الغابة إلى صورة طرزان الحالية كما يتصورها المؤلفون
وليست لهم حضارة .

وربما كان هذا هو السبب في أن الواحد منهم حينما يعثر على مجتمع مثل
البارى . . فإنه يعيش على خدمته . يأكل فضلاته دون أن يطلب لنفسه
حقاً . .

* * *

وفي قبائل « البير » يؤمنون بإله اسمه « تومو » . ويضعون له الطعام تحت
الشجر حتى يأكل ويشبع .

وهم لا يدفنون موتاهم وإنما يلقون بهم في العراء خارج القرى ويضعون
إلى جانب الجثث أواني الماء حتى يجد الوحش الذي ينهشها ما يبل ظمأه .
وفي هذه القبائل . الله اسمه « تومو » . . والمطر أيضاً اسمه « تومو » .

* * *

وفي قبائل « اللانجو » يؤمنون بإله اسمه « نايحوك » .
وإلى جوار كل كوخ يبنى اللانجو مزاراً لهذا الإله عبارة عن بضعة قوالب
من الحجر مصفوفة في دائرة صغيرة وعليها سقيفة أشبه بظليلة الكتاكيت .
وهم يقدمون القرابين لهذا المزار ويسكبون دم الذبائح ومحتويات أمعائها
بداخله .

وفي قبيلة « البونجو » حينما يفشل صانع المطر في استدراج الأمطار بججارة

الكوارتز فإنه يخرج من كوخه مجموعة من الأبواق . ويأخذ هو وأتباعه في
النفخ فيها والهتاف أيها المطر . إنزل . . أيها المطر إنزل حالاً . .
وهم في طقوس الدفن . يضعون مجموعة من التماثيل الخشبية للحيوانات
التي كان يصطادها الميت مع تماثيل أخرى آدمية . وقيمون الولائم ويدبرون
أقداح الخمر ويرقصون ثم يأخذون في إصطياد تماثيل الحيوانات بنبلهم . .
والبونجو لا يهتم بخيانة زوجته إلا إذا رآها مع عشيقها في حالة اتصال
جنسي . وفي هذه الحالة يكتفى أن يضرها علة . ويطالب عشيقها
بتعويض . .

وداع الغابة

كان الليل شديد الظلمة .

وكانت الحرائق التى أشعلها الزوج لتطهير الأرض تبدو كمسارج زيت
متناثرة تضيء الغابة . . وحلقة الراقصين التى تتوسط هذه الساحة الطبيعية
الساحرة تموج بالحركة . . زوج الزاندى الذين عادوا من الغابة بصيد سمين
وشربوا المريسة يخاصرون رفيقاتهم ويهزون أردافهم ويدورون فى حلقات
يرقصون فى نشوة ويغنون . .

مى أبى مانجا نارى . .

كو آجو دايارى

كوجو ووووه

والكهول الذين قعدت بهم الشيخوخة يكتفون بهز أكتافهم ورءوسهم
مع الإيقاعات وأفواههم التى تكسرت أسنانها . . تضحك فى إشراق . .

ووووه أيننا جوجو

إيننا كومبا

زابو زابو

أيو إيمى بى ووووه

طفولة الإنسانية الحلوة . . كنت أراها حولي .

الطفولة بكل براءتها . . وخطاياها . . ومرحها . . وانطلاقها النشوان
كانت ترقص على نقرات أشجار « التيك » المجوفة . . لا يسترها شيء . .
لم يكن عند واحد من هؤلاء الأطفال الكبار شيء يخفيه . . كل منهم
كان يغنى من أحشائه . . وكان يعطى نفسه كلها اللحظة التي يعيشها .
لا افتعال . . لا خجل . . لا تمثيل . . لا غرض من وراء أى شيء . .
وإنما الكل يرقص لأنه فرحان . لأنه يعيش بجماع قلبه .

وشعرت بالدماء تدب في أوصالي الباردة . . وشعرت بطفولتي الدفينة
تحت ركام ثلاثين عاماً من كابوس المدينة . . تطل برأسها . . وتتمطأ .
وتنبثق من تحت الردم . . وتسرى في جسد كسيال من الكهرباء . .
وشعرت بنفسى أقوم . . وأهتر . . وأرقص . . كما لم أرقص في حياتي
كطفل مولود تهدهده أمه . . الطبيعة .

همج . . نعم . . ولكن ما أحوجنا إلى الكثير من براءة هؤلاء الهمج .
وحوش . .

أكلو لحوم البشر . .

نعم . .

جد هذا الزنجى العجوز الذى يهز كتفيه أكل ذراعاً بشرية في الأيام
الخوالى . ربما . . ولكن ماذا فعلنا نحن بالقنبلة الذرية في عصر النور والمعرفة
والحضارة . .

كم أكلت هذه القنبلة من أذرع وسيقان . وكم هشت . وكم نهشت
من وجوه جميلة في هيروشيما .

كانت ترقص على نقرات أشجار « التيك » المحوفة . . لا يسترها شيء . .
الأخيرة ؟ ! . سبعة ملايين : أكثر من سبعة ملايين .

ووووه آنى نامانجا أبابى
رى وبنى أندو أنى مانجاي
ووووه

الزنجى العجوز يهز كتفيه ويقهقه فى مرح من حسن الحظ إنه لا يستطيع
أن يقرأ ما يدور بخلدى . . وإلا لأغشى عليه من الرعب .
وحوش . . همج . . برابرة . . يؤمنون بالخرافات . .
وبماذا يؤمن الأوروبي المتمدن . . بصنم اسمه الدولار .

ووووه أيننا جوجو

أيننا كومبا

زابو زابو

أيو إيمى بى ووووه

كنت أشعر بدوار غريب مسكر

كنت أشعر أنى عدت إلى أصلى . . إلى أهلى . . إلى حضن عائلتى . .
بعد قرون غريبة عشتها طوافاً . . متغريباً . . بين غرباء لا أعرفهم .

ومن حولى آلهة الأساطير . . جوك . ونايجوك . ومارياك . ومبولى . .
وجان لوكى . . وجان لوكاك . وكاوٲ . ودنجديت . وتومو .
ومن حولى الناس أرحم . . وأكثر إنسانية من ناس المدينة .
وحضن الطبيعة أكثر دفئاً . . وأكثر خصباً .

وصدر الأرض رطيب . . مبلل بالأمطار . . مخضل بالندى . . ضرعه
لا يجف . . ولا ينضب منه الحليب .

لماذا يهدنا التعب والهكلال فى المدن . . كل المدن .
كم تمنيت أن أستلقى على هذا الصدر وأنا .
لماذا يهدنا التعب والهكلال فى المدن . . كل المدن .
فى القاهرة . فى لندن . فى موسكو . فى باريس . فى كل المدن . .
الناس مهمومون . شاحبون . يسرون بخطى مثقلات كأنهم على سفر
شاق لا ينتهى .

فى الخرطوم سمعت الشاعر الفيتورى فى آخر قصائده يقول :

بعض معانينا العذاب يخفيها

يتمصها حتى يلاشيها

يبنى ستاراً حولها قاتماً .

تلمسه الروح فيدميها .

* * *

بعض معانينا حياة تموت

يموت فيها الفرح

يموت حتى الحنين

ونحن نجثو حولها خاشعين .

* * *

بعض معانينا خطى مثقلات

بالحقد والنقمة

ملوية الأعناق مستكبرات
لا تعرف الرحمة
لأنها تخوض في الظلمة
أنهم في الخرطوم أيضاً يتعثرون في القلق والنقمة والظلمة . . ويسIRON
بخطى مثقلات . مهمومون شاحبون .

وووه أينا جوجو
أينا كومبا
زابو زابو
أيوا ايمى بى وووه
لماذا لا نعرف مثل هذا المرح الطليق عندنا في المدن . لماذا لا نرقص
هكذا من أحشائنا .

إن عندنا كل أدوات المرح والرقص .
عندنا سيمات ومسارح وأوركسترات .
عندنا مضحكون محترفون يسهرون على إضحاكنا .
عندنا إذاعة وتليفزيون .
عندنا أراجوز .
عندنا كب .

عندنا كهرباء نهزم بها الظلام .
عندنا ماء في الحنفيات . لا حاجة لنا لأن نتظر من يصنع لنا الأمطار .
عندنا ألف صنف وصنف من الحلوى . والمخللات والمشهيات .
عندنا أفخر الملابس والثياب .

عندنا أجمل نساء . وأشهى نساء .

عندنا أموال فى البنوك .

لماذا كل أغانيها حزينة . لماذا وجوها شاحبة . لماذا قلوبنا مريضة .

لماذا أرواحنا متعبة . لماذا نشعر بأننا مذنبون .. لماذا نقتل بعضنا البعض .

أهو انتقامنا من أنفسنا .

أهى المعرفة التى جلبت لنا الحزن .

أم هى القوة التى وضعها العلم فى أيدينا . . هى التى ضاعفت التناقض

الذى نعيش فيه كبشر أقوياء قادرين . وقوانين عاجزين فى نفس الوقت .

هل هى القبلة والذرة . وزجاجة الدواء . وكل خبرات العلم وشروره

هى التى أثقلت كواهلنا بالمسئولية كحملة ووارثين لكل هذه الأسلحة المخربة

والنافعة .

أم هموم المسئولية .

أم هو الزهد اليائس الذى صبغ أمامنا كل شىء بصبغة الأشياء الزائلة .

وجعل من كل المسرات والأفراح باطل الأباطيل . الكل باطل وقبض

الريح :

أهى ترنيمة الإنجيل . . طوبى للحزاني :

أم نو الفن . . أم العلم . . أم الثلاثة مجتمعين صنعوا لنا هذه الحضارة

الحزينة .

لا أدرى . .

ولكنى أعلم أننا نعيش فى المدن . . كل المدن . . حزانى . . مهمومين
قلقين . . معذبين :

ووووه أينما جوجو :

أينما كومبا

زابو زابو . .

أيو إيمى بى ووووه . .

لا عهد لنا بمثل هذا المرح الطليق أبداً . .

الزنجى العجوز مازال يهز كتفيه ويضحك . رجله مقطوعة . أكلها
أسد . . ولكن ماذا يهم . . إنه يرقص بكتفيه . . ويهز رأسه مع النغم ،
ويضحك . .

الله يمنح أطفاله البسطاء الفرح . . هذا سره . .

إننا نقول عنهم إنهم بدائيون متخلفون . . ولكن الله يضىء عليهم من
الفرح والمسرة ما يضيفه على أحبابه .

فى لقاء عارض مع طبيب من أطباء الجنوب وجدت عنده أكداً
مكدسة من الأدوية والعقاقير . . مازالت فى صناديقها . . لم تفتح . . وقال
الطبيب . إنها أدوية السكر والقلب والضغط والذبحه وتصلب الشرايين . .
وهى أمراض لا تعرف طريقها إلى الغابة . . وكل أدويتها ترد بحالها دون أن
يصرف منها قرص . .

الفرح يحصن الزنوج من هذه الأمراض التى لا تصيب إلا سكان
المدن . .

ووووه أينما جوجو .

أينا كومبا

زابو زابو

أيو يمي بيى ووووه

ونظرت إلى ساعتي . . كان الليل قد انتصف . . وكان على أن أحزم
حقائبي استعداد للعودة . . لألحق بالطائرة التي تقوم في الثالثة بعد منتصف
الليل . .

وألقيت على الغابة التي أحبتها نظرة وداع . .
وكانت الحرائق التي أشعلها الزوج لتطهير الأرض . . مازالت تشتعل
كمسارج الزيت . . وتضيء الطريق . .
وكان الرقص مازال على أشده . .
ونظرت إلى السماء . . كانت قائمة هائلة تبرق فيها النجوم . . كملاءة
سوداء فيها ملايين الحروق . .

الفهرست

صفحة

هـ	هذا الكتاب (مقدمة)
٧	الطريق إلى الغابة
٢٧	الماو .. ماو
٥٧	السودان
٦٧	النيام نيام
٩١	الشيلوك
١٠١	الدينكا
١٠٩	النوير .. الباري .. اللانجو .. البونجو .. الدوبي
١١٧	وداع الغابة

صدر للمؤلف

- | | |
|--------------------------------|----------------------------|
| ٢٣- الغابة | ١ - الله والإنسان |
| ٢٤- مغامرة في الصحراء | ٢ - أكل عيش |
| ٢٥- المدينة (أو حكاية مسافر) | ٣ - عنبر ٧ |
| ٢٦- اعترفوا لي | ٤ - شلة الأنس |
| ٢٧- ٥٥ مشكلة حب | ٥ - رائحة الدم |
| ٢٨- اعترافات عشاق | ٦ - إبليس |
| ٢٩- القرآن محاولة لفهم عصرى | ٧ - لغز الموت |
| ٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان | ٨ - لغز الحياة |
| ٣١- الطريق إلى الكعبة | ٩ - الأحلام |
| ٣٢- الله | ١٠- أينشتين والنسبية |
| ٣٣- التوراة | ١١- فى الحب والحياة |
| ٣٤- الشيطان يحكم | ١٢- يوميات نص الليل |
| ٣٥- رأيت الله | ١٣- المستحيل |
| ٣٦- الروح والجسد | ١٤- الأفيون .. (سيناريو) |
| ٣٧- حوار مع صديقى الملحد | ١٥- العنكبوت |
| ٣٨- الماركسية والإسلام | ١٦- الخروج من التابوت |
| ٣٩- محمد | ١٧- رجل تحت الصفر |
| ٤٠- السر الأعظم | ١٨- الإسكندر الأكبر |
| ٤١- الطوفان | ١٩- الزلزال |
| ٤٢- الأفيون .. (رواية) | ٢٠- الإنسان والظال |
| ٤٣- الوجود والعدم | ٢١- غوما |
| ٤٤- من أسرار القرآن | ٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا |

- | | |
|----------------------------|--------------------------------|
| ٤٥- لماذا رفضت الماركسية | ٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر |
| ٤٦- نقطة الغليان | ٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة |
| ٤٧- عصر القروود | ٥٦- الإسلام ... ما هو ؟ |
| ٤٨- القرآن كائن حتى | ٥٧- هل هو عصر الجنون ؟ |
| ٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامي | ٥٨- وبدأ العد المتنازلي |
| ٥٠- نار تحت الرماد | ٥٩- حقيقة البهائية |
| ٥١- المسيح الدجال | ٦٠- السؤال الحائر |
| ٥٢- أناشيد الإثم والبراءة | ٦١- سقوط اليسار |
| ٥٣- جهنم الصغرى | |

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت في بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

١٩٩٤ / ٣٨٩٦	رقم الإيداع
ISBN 977 - 02 - 4494 - 5	الترقيم الدولي

١ / ٩٤ / ١٣
 طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال
الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى
محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى
ساحة الفكر والعلم.. وطرق أبواباً جديدة لم تفتح من
قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية
وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التي تحفل
بالنظرات المعاصرة للفكر الديني والمقارنة بالنظرات
العلمية الحديثة.. والتي لاتزال تثير مزيداً من الجدل
المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى
القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض
أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء
المتميز المتنوع.

